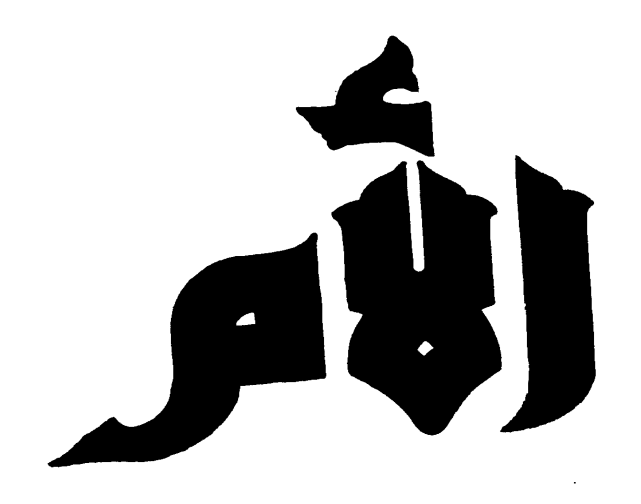
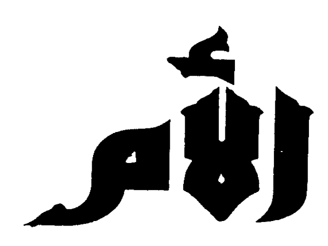


حكايات وقصص

تصميم الغلاف

للفنان محمد قطب

فتحي الإبياري



الأم

حكايات وقصص



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩١

إلى روح أمى

نبع حبى
الحاجة إحسان محمد الفحام
أغلى حب فى الوجود
حب . . بلا مقابل
تغمدها الله برحمته ،
وأدخلها فسيح جناته .

فتحى الابيارى

مقدمة الطبعة الرابعة

لماذا لا نكرم الام ..
ونحن نحتفل بعيد الام ! ؟

لماذا لا نكرم الأم . . ونحن نحتفل بعيد الأم ؟
سؤال قد يبدو غريبا ، اذ كيف نحتفل بعيد الأم . . ولا نكرمها ولكن الأغرب هو ما حدث فى هذه الحكاية العجيبة .
فقد أصيبت والدتى بجلطة فى المخ ، أفقدتها الحركة والنطق ايضا وظلت فى العناية المركزية عدة أشهر . وطلبت من ادارة المستشفى شهادة تفيد بأنها ما زالت تعالج طوال تلك الشهور . . وعندما انتهت قواعد الروتين . . فوجئت بالموظف المختص ، يقول لى :
ـ لا أستطيع تسليمك الشهادة ، الا بعد اثبات انك ابنها
وابتسمت ، فهذا أمر بسيط ، وأخرجت بطاقتى العائلية ، وفوجئت بأن اسم الوالدة لم يكن مكتوبا فى البطاقة .

ورفض الموظف تسليمى الشهادة . وذهبت الى البيت ابحث عن بطاقة التموين ، فتبين ان لها بطاقة خاصة باسمها . وفتشت عن الباسبور الخاص بها . واحضرته الى الموظف ، ولكن قال لى :

ـ ان الباسبور لا يشير الى انك ابنها .

واحترت . . كيف اثبت ان امى . . هى امى . وجاء معى الدكتور محمد نصر المشرف على علاجها ، والأستاذ الدكتور محمد الفطاطرى استاذ الأمراض النفسية المعالج ، والدكتور محمد صديق رئيس الادارة المركزية . . كشهود على ان امى هى امى .

ولم يقتنع الموظف وقال صارخا : انها مسئولية يا جماعة وأضطررت إلى ان اسافر الى القاهرة ، لاستخراج شهادة ميلادى من الملف ، وقمت باستخراج شهادة ادارية من موظفين . وختم النسر تفيد بأن أمى هى أمى . وعندئذ فقط اقتنع الموظف الروتينى الهمام وأعود لسؤالى . . لماذ لا نكرم الأم . . فى عيد الأم . . وان تصدر الأوامر بان يكتب اسم « الأم » فى البطاقات العائلية أو الشخصية . ويكفى ان الانسان سوف يدعى فى العالم الآخر . . يا فلان يا بن فلانه . وهذا تكريم من الله سبحانه وتعالى لما تكبدته من الآم فى الدنيا ، ناكرة ذاتها . فيجب ان نكرمها فى عيدها كما يقول الشاعر :

لو لم تكن ربى وسر هدايتى   لعبدت أمى فهى نور حياتى

●● ما الذى حدث من انقلاب فى السلوكيات البشرية ، والعلاقات الاسرية ؟

فى الصفحة الاولى من الصحف ، نشرت خبرا يثير القشعريرة فى جسم الانسان ، ولكن فى النهاية يحس المرء بأن الدنيا ما زالت بخير ، رغم لونها الرمادى . .

الخبر يقول ان احد الأبناء اعتدى على امه بالضرب ، فاستنجدت بالله والجيران الذين التفوا حولها وأخذوها إلى الشرطة ، وتحرر للابن عقابا على جريمته ، ناسيا قول الله سبحانه وتعالى : « ولا تقل لهما اف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما » . ولكن الابن لم يعجبه حكم البشر . فاستأنف الحكم . وحضرت الأم المصابه بجروح من اعتداء ابنها عليها وأعلنت أمام القاضى انها متنازلة عن حقها . . ومهما حدث فانه ابنها ولا يسعدها أن يسجن بسببها ، ولا ترضى له ان يتألم . وان يتعذب وهى التى تتمنى ان يدوس على رموش عينيها ليرتفع امام الناس . ويسعد .

ولكن القاض أصر على ان ينحنى الابن ويقبل قدمى امه اما الناس ، ويقبل يديهالأن الجنة تحت أقدام الأمهات . وانحنى الابن العاق على قدمى امه ، يقبلهما ، ويقبل يديها ولا أدرى . . هل خوفام من السجن ، . أم توبة . . . أم أنه قد نسى قول الرسول الكريم ﷺ : « اتقوا الله فى الضعيفين . . المرأة واليتيم » . . اى الأم وقد روى ان رجلا سأل الرسول الكريم قائلا :٠

— يا رسول الله . . من أحق الناس ببرى ؟
— قال : أمك .
— قال : ثم من ؟
— قال : أمك .
— قال : ثم من ؟
— قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ابوك .

وأخبرنا الرسول الكريم ﷺ « ان الجنة تحت اقدام الأمهات » .
يقولون ان الحقيقة اغرب من الخيال .

وان هذه الحكاية . . أو المأساة . . تجعل الدموع تتحجر فى المآقى
وفى الصفحة الأولى نشرت الصحف ايضا خبراً تحت عنوان « مأساة أم
لـ ٩ أبناء » ويروى الخبر فى السطور :
حمل الأبناء التسعة امهم العجوز التى جاوزت العام الخامس
والسبعين من عمرها من القاهرة وألقوا بها أمام احد المسجد فى مدينة
السويس ، ليتخلصوا منها بعد ان امضت هذه الأعوام الطويلة تعتنى
بهم وتسهر على راحتهم .

وأمام بيت الله تركوها . . فوق الأرض الباردة ومضوا فى طريقهم
ولكنها لم تبق هناك طويلا ، فقد ساق لها القدر عابر سبيل كان يصلى
العشاء ، وعندما انتهى من صلاته عثر عليها وكانت فى حالة اعياء
شديد ، وهى لا تكف عن ترديد عبارة واحدة : ابنائى . . ابنائى
التسعة جاءوا بى الى هنا ، وألقونى فى الشارع وأسرع الرجل يحمل
الأم المسكينة فى سيارة ، ثم اتصل تليفونيا بالعقيد صلاح شرف مأمور
قسم السويس . وانطلقت السيارة بالأم إلى المستشفى .
ولكنها لم تصل اليه .
فقد فارقت الحياة فى الطريق . . ماتت الأم حزنا وكمدا . .
والدموع تملأ عينيها . وكان آخر شيء نطقت به هو اسمها . . انها
« صبيحة محمد ابراهيم » .
سبحان الله . لقد تولاها بعنايته ، ولم يجعلها ترى هؤلاء الأبناء
العاقين الذين حول الله وجوههم الى سواد الفحم . وأعمى بصيرتهم
الى يوم القيامة . وقد نسوا كيف كرم القرآن الكريم الأم . وكذلك
الرسول عليه الصلاة والسلام . ومما يروى احد الأعراب سأل صديقه
العائد من بلده عن احوال اسرته فقال .

ـ مات ابوك ! فقال الأعرابى : بلغت رشدى .
ـ ومات ولدك ! فقال الأعرابى : الله يصبرنى .
ـ وتهدم بيتك ! فقال الأعرابى : الله يعوضنى .
ـ وماتت ايضا امك فقال الأعرابى بعد ان بكى : ما بقى لى فى الدنيا من حبيب .

● ● ●

وقد رُوى عن الصالحين ، إن الإنسان عندما تموت أمه ، تقول الملائكة :

يا أيها الإنسان .. ماتت التى كنا نُكْرمك من أجلها ، فاعمل لنفسك من الآن ، ومن أجلها ، تنال رضا الله ، والثواب الكثير .

وقصة هذه الطبعات الأربع لها قصة لابد من ذكرها . فعندما ظهرت فكرة على أمين للدعوة إلى يوم نحتفل فيه بأمهاتنا ونتذكرها لنقول لها شكرا . نبعت فكرة كتاب « الأم فى الأدب » ، بحثت فى بساتين الأدب العربى منذ الجاهلية حتى الآن .. اقتطف الزهور التى يفوح عطرها بحب الأم . ونفدت الطبعة . وقد رسم غلافه الفنان محمد قطب عام ١٩٦٨ .

وفى سلسلة « كتاب اليوم » التى تصدر عن « أخبار اليوم » ظهرت الطبعة الثانية ، بعد أن تجولت بين ربوع الأدب العالمى من قصة ، ورواية ، ومسرحية ، وأيضا الفن التشكيلى .. منذ العصر الفرعونى .. حتى العصر الحديث ، انتقى اللوحات والتماثيل الفنية التى أبدعها عظماء الفن على مر العصور ، وقصص الأمهات المثاليات فى مصر . وصاحب الكتاب حملة إعلامية ضخمة فى صحف أخبار اليوم ، بفضل الأستاذ المرحوم أمين عدلى ونفذت الطبعة ، وتم توزيع ٤٠ ألف نسخة ، وكان ذلك عام ١٩٧٢ . ورسم غلافه الفنان الكبير

بيكار ، وكتب خطوطه عميد الخطاطين المرحوم عيسوى . وكان ثمن الكتاب عشرة قروش فقط .

ومرت السنوات ، وفى حوار مع المرحوم شاعرنا الكبير ، وصديق العمر صلاح عبد الصبور ، وكان رئيسا للهيئة العامة للكتاب ، طلب أن نعيد طبع الكتاب ، بإضافات ولوحات فنية بالألوان . وخلال طبع الكتاب ، سقطت فى فراش المرض طوال أربعة شهور ، ولم أستطع الاشراف على طبع الكتاب ، وتولى صلاح عبد الصبور الأشراف بنفسه على إخراج الكتاب رغم مشغولياته وأعبائه الجسام . وصدر الكتاب فى طبعته الثالثة ، وصمم غلافه أيضا الفنان محمد قطب ، عام ١٩٨١ .

وتوالت السنوات ، ومرضت الأم ، وظلّت فى العناية المركزة طوال عشرة أشهر لا كلمة .. ولا حركة إلى أن ضمها الله إليه ، وتولاها برعايته . قبل أن أوافق على قطع رجلها .. بعد أن تسربت الغرغرينة فى قدميها ، وكنت أقبّل قدميها داعيا الله أن يرحمنى من عذاب تلك العملية الجراحية . ومازالت صورة أمى ماثلة فى عينى ، وقلبى إلى آخر العمر . فقد كنت وحيدها ، وعالمها ، وحياتها . وكنت أنا مشغولا بجولاتى الصحفية فى أنحاء العالم . ووجدت هذا العالم تائها ، وطوال أشهر مرضها ، أكرمنى الله ، فارتشفت من قدميها المقروحتين .. شهد الآخرة ، داعيا الله أن أكون من الأبناء البررة .

وتذكرت كتاب « الأم » لأقدمه إلى روح أمى ، وإلى كل الأمهات .. ووافق د . سمير سرحان فورا على أن تصدر الطبعة الرابعة .. فهو كتاب كل القلوب المحبة .. لأصفى نبع حب فى الوجود .. حب بلا مقابل .. حب الأم .

فتحى الابيارى
مارس ١٩٩١

هـذا الكتاب

فى أعماق كل منا حب دفين ، لا يستطيع أن يعبر عنه ، لأنه يجد نفسه عاجزا تماما عن أن يترجم أحاسيسه ومشاعره تجاه هذا الحب الصادق الأصيل ، حب من الذات الإلهية .. حب الأم لأبنائها . لأن الأم تحب بلا مقابل ، بلا ثمن ، بلا غاية . تشقى . وتتعذب وتتألم كثيراً من أجل أبنائها ، ويكفيها من هذا المشوار الطويل فى هذه الحياة القاسية ، أى ترى البسمة على شفاه أولادها ، أو أن تراهم سعداء ، أو عظماء ، ومهما كبر الأطفال ، وأصبحوا أعظم العظماء فإنهم فى عيون أمهاتهم مازالوا أطفالا فى حاجة إلى لمسة حنان من يدها ، إن أشق عذاب تصادفه أى ام ، أو جحيم تحرق فيه .. أن تصادف الجحود من أبنائها أو نكران الجميل ، وهى التى لاتريد شيئا .

ولهذا ، فإنه لأول مرة يقوم كاتب أو مؤلف .. بجمع ، وبحلل وينقد ويضيف كل ما كتب عن الأم من ابداعات فنية ، وقصص ، وروايات ، و أشعار وكلمات ، وأزجال ، ورسائل ، ولوحات ، فى صمت دءوب طوال ست سنوات .. كما فعل الأديب القصصى فتحى الإبيارى ، فى هذا الكتاب الذى يعتبر الأول من نوعه فى مكتبتنا العربية ، والذى يسد فراغا ملحوظا جدا أثناء احتفالنا بيوم عيد الأم .. ذلك اليوم .. الذى يعيد إلينا الذاكرة لكى نقول كلمة حب صادقة .. إلى أمهاتنا .. ويسر هيئة الكتاب .. أن يكون هذا الكتاب قد حقق أمنية الملايين .. فى أن يجدوا .. كلمة الحب هذه فى سطور هذا الكتاب .. إنه هدية لكل أم .. فى أجمل أعيادها ..

عيد الأم ..

عيد الربيع ..

عيد الحب ..

إهـــداء

وقفت الأم أمام جنود الأعداء .. صامدة .. لاتنم قسمات وجهها عن ثورة البركان التى تفجرت داخل أعماقها . إن الأعداء يريدون تفتيش البيت للقبض على الفدائى الذى دخل منذ لحظات ليختبىء .. وهى تحاول إنقاذه بكل ما وسعتها الحيلة .. إن ابنها المعتوه فى الداخل .. ولكنها مع ذلك ترى الدنيا من خلاله .

إن كل الأمهات فى القرية يتحدثن عن بطولات أبنائهن .. وعن الذين استشهدوا .. وهى لاتجد مكانا لها فى الحديث .. والأعداء يحيطون بالقرية من كل جانب .

ومرت الأفكار فى ذهن الأم سريعا .. وهى واقفة أمام جنود الأعداء وقررت أن تفعل شيئا . وأرشدتهم إلى ابنها .. وأخذه الأعداء معتقدين أنه فدائى . ولمعت شرارة انتصار فى عينى الأم .. وهى تخرج الفدائى الحقيقى من المخبأ . ليواصل طريقه . وعندما قبلها الفدائى شاكرا لها بطولتها ، خانتها دموعها .. وسالت من مآقيها .. وبكت على ابنها بكاء حارا .. ولكنها فى النهاية ..

أصبحت تجد كلاما تتحدث به فى مجتمع الأمهات .. أمهات الأبطال .

وأم أخرى عجوز .. اشترك أبناؤها الثلاثة فى صد هجوم الأعداء على الوطن .. وخلال المعارك .. جاءها نبأ استشهاد إبنها الأكبر . فقالت .. إن أخويه سيؤديان ما كان إبنى الأكبر يقوم به فى الميدان .

ثم جاء نبأ استشهاد ابنها الثانى .. فقالت .. لعل ابنى الوحيد يؤدى أعمالا جليلة لبلادى .. ثم جاءها نبأ استشهاد إبنها الثالث وعندئذ بكت .. وبكت .. ولكنها توقفت عن البكاء عندما سمعت مندوب يخبرها بأن الحكومة قد قررت لها معاشا كبيراً لأنها أم لثلاثة من الأبطال .

توقفت الأم العجوز عن البكاء . . ونظرت إلى المندوب .. نظرات ألم وعتاب .. وقالت له « إننى لا أبكى على استشهاد أبنائى الثلاثة .. ولكننى أبكى لأننى عجوز .. ولاأستطيع أن أهب للوطن أبنا رابعاً ..

وقصص .. وحكايات نادرة عن الأم .. وبطولتها الخارقة التى لايصدقها المنطق . . ولكنها حقيقة واقعة تسجلها « الأم » كل يوم .. عبر عصور التاريخ .. تؤكد دائما أن .. الأم .. لايمكن لأى إنسان أن يوفيها حقها . . وكل مانفعله نحوها هو محاولة لاسترضاء الذات .. فى رد ذرة واحدة من ملايين الذرات التى تغمرنا بها

الأم. وهذا الكتاب الصغير . . تعبير ضئيل عن حب عميق غارم تجاه الأم . واذا كنا نقدم التماثيل فى الميادين الكبرى للجندى المجهول .. فلا يجدر بنا أن نقيم تمثالا ضخما يرمز إلى الأم .. بكل مافيها من عطاء .. وتضحية وبطولة .. حتى لا نكون من الجاحدين ..

فإلى أمهات الشهداء ..

وكل الأمهات ..

وأمى ..

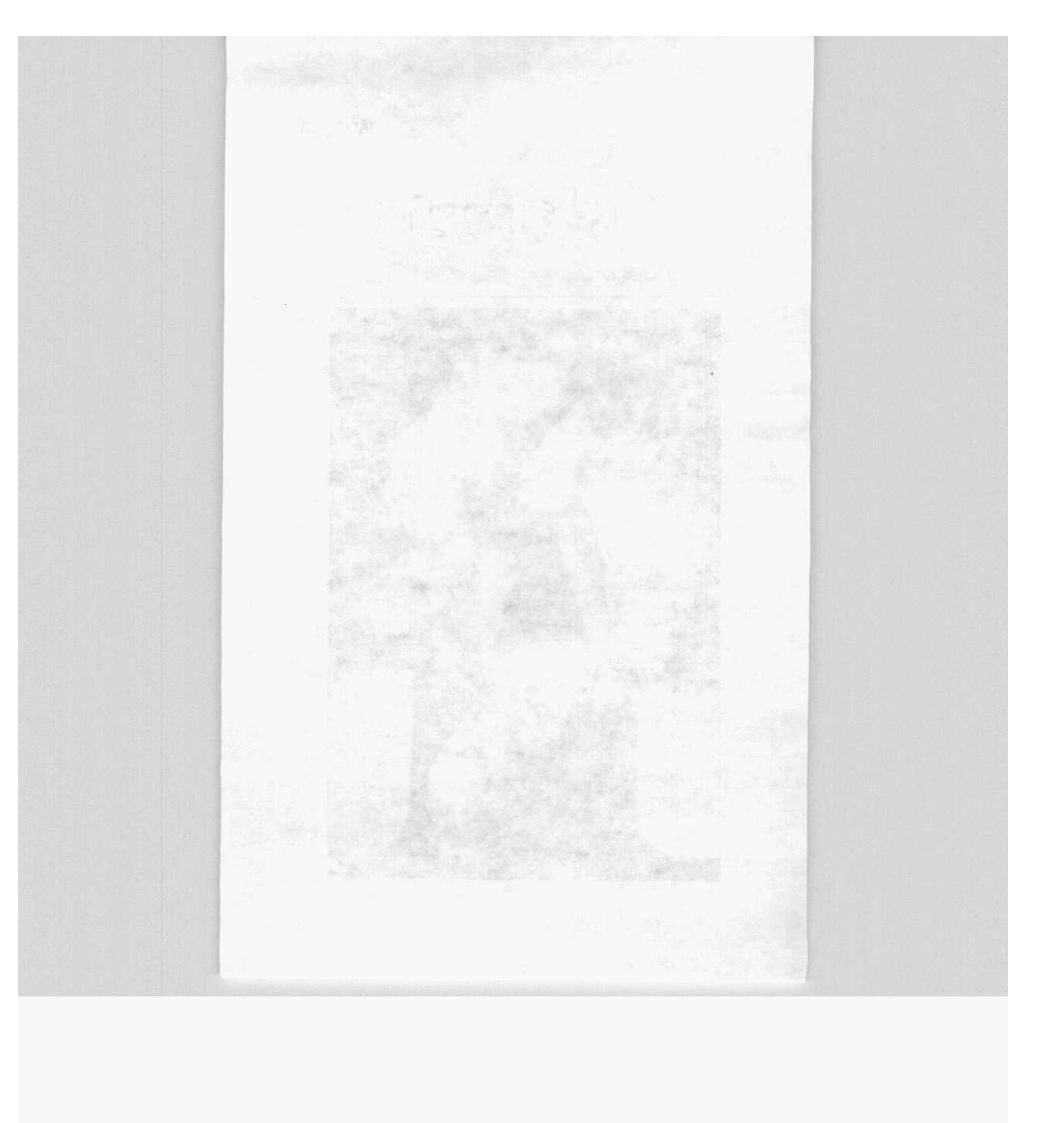
أقدم أجمل باقة حب .. فى تلك الكلمات .

فتحى الإبيارى



للرسام ب . باتونى

الأم فى القصص القرآنى



الأم .. فى القصص القرآني

هناك قصص عن أمهات فضليات .. أمهات قمن بتربية من إصطفاهم الله ليكونوا انبياء يهدون الناس قاطبة إلى الطريق السوى ، والهدى المبين .

لقد كان دور الأمهات فى حيوان الأنبياء الأربعة :

إسماعيل ، وموسى ، ومحمد .. عليهم جميعا أزكى الصلاة والسلام ، من أهم الأدوار فى تلك الرسالات السماوية .

لقد يبدو من عجب الاتفاق أنهم — عليهم السلام — قد عهد بهم فى طفولتهم إلى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت إلى جانبه فقد الأب أو غيابه .. غير أنا نرى الآن طبيعيا لا غرابة فيه ولامصادفة ، ولا اتفاق ، إذ أن الأمومة فى عاطفتها الجياشة وإيثارها الرائع ، أقرب إلى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية التى تقوم على

الروحانية وما كانت السماء لتجحد هذه الصلة ، ولا كانت الأديان التى جمعها أبناء ربتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها فى غير موضعها العتيد .

فما هى قصة الأمهات الفضليات التى ذكرها القرآن الكريم ؟

إن قصة إسماعيل وأمه رضى الله عنهما ، تبدأ عندما هاجر إبراهيم إلى فلسطين ، ومعه زوجته « سارة » وخادمتها « هاجر » كانت سارة عقيما لاتلد وأحزانها أشد الحزن عندما رأت زوجها يتطلع إن أن يكون له ذرية ، ولكنها بلغت من الكبر عتيا . فأشارت إلى زوجها أن يدخل بخادمتها « هاجر » علها تنجب ولدا تشرق به حياتهما ، ويسرى عنهما بعض ما يجدانه من لوعة الوحدة ، ومرارة الوحشة .

ودخل إبراهيم — عليه السلام — بهاجر ، فانجبت غلاما ذكيا هو إسماعيل فانتعشت نفس إبراهيم ، وقرت عيناه . ولكن الغيرة بدأت تأخذ طريقها إلى قلب سارة ، وظلت حزينة ، ولم تستطع أن تتحمل الفرحة التى كانت مرتسمة على وجه إبراهيم ووجه « هاجر » فطلبت من ابراهيم أن يقضى « هاجر » وابنها عن دارها وأن يذهب بهما الى مكان بعيد جداً ، حتى لاتسمع صوتهما ولاتقع عيناها عليهما .

وكان الله قد أوحى إليه أن يطيع طلبها ، فاستجاب إلى رجائها ، وركب دابته ، واصطحب الغلام وأمه . وسار بهما

طويلا فى الصحراء ، حتى ستأنس مكانا ، فوقف وأنزل هاجر وابنها إسماعيل . وترك قليلا من الطعام والماء ، وإيمان بالله يعمر قلبها ؟

وقد وصف هذا المشهد كثير من المفسرين ، وحاولوا جاهدين أن يصوروا ماحدث مستوحين بآيات القرآن ، فمن الممكن حدوثه ، أن تستعطف هاجر إبراهيم عندما رأته يبدأ فى الرحيل . وربما سألته قائلة : إلى أين تذهب ياإبراهيم .. ولمن تتركنا بهذا الوادى .. الموحش المقفر .

ولاشك أنها قد حاولت استعطافه ، ولعلها قد توسلت إليه بفلذة كبده ترجوه ألا يتركهما للجوع ، . وقسوة حرارة الشمس وربما ظلت تبكى ، وتتعلق بثيابه ، وبخطام دابته ، فتوسلت إليه ألا يتركهما بلا حارس يحميهما من هجمات الذئاب والوحوش . ولعله لم يستمع اليها لأنه كان موحى بكل مايقوم به من أعمال . فلم يقل لها شيئا سوى أن الله قد أمره بهذا ، فلابد من الخضوع لأمر الله ، والتسليم له ، والإيمان به .

وامتثلت هاجر لحكمة الله . ومرت الايام ، ونفذ الماء والطعام وجفت ريقها من شدة الحر ، فاحتملت صابرة ، ولم يلبث أن جف ضرعها ، وأصبحت لاتجد لبنا ترضعه الطفل . واشتد صراخه ، فتفتتت نياط قلبها ،وانهمرت دموعها مدرارا وودت لوتروى ظمأه بدموعها لتنقذه من العطش المميت ونظرت هنا وهنا ، فلم تجد

الا الرمال تنتظرها ، وظلت تعدو فى الصحراء للقفرة ، لتبحث عن نقطة ماء ، ولكن بحثها وجريها وراء السراب .. لم يثمر شيئا ، فلم تجد الا الطفل وقد علا بكاؤه ، وكان يتلوى من ألم الجوع ، وكان يضرب الأرض بقدميه ..

وحدثت المعجزة . لقد تفجرت المياه من تحت قدمى الطفل .. قدمى اسماعيل . فبهرت الأم .. لما حدث .. واستقر إيمانها بالله فارتوت بعد أن شرب اسماعيل من العين المتفجرة .. عين زمزم التى مازالت قائمة حتى اليوم . يزدحم حولها الحجاج ليفوزوا بقطرة . ولما نبع الماء تكاثرت الطيور ، فحومت حوله وحلقت فوقه . وكان قوم من جرهم يسيرون قرب المكان ، فرأوا الطير يحط فى ساحته . وأنهم ليعرفون أن الطيور لاتقع الا على الماء ، فأرسلوا واردهم يرتاد المكان . ولما ذهب اليه ، وجد الماء ، فرجع يزف الى قومه البشرى ، فوفدوا اليه زرافات ووحدانا ، واتخذه بعضها موطنا ومقاما .

فأنست هاجر بهم ، واطمأنت الى جوارهم ، وشكرت الله أن جعل أفئدة من الناس تهوى اليهم .

ثم شب إسماعيل ، وذاع صيته ، واختلط القوم . وتزوج بواحدة منهم وأحس بالسعادة تغمره ، ولكنه المنية اختطفت أمه ، فعز عليه فقدها ، وتقطر قلبه حزنا عليها ، فقد تعهدته فى مهده ،

ورعته فى طفولته ، واظلته بحنانها فى شبابه ، وكانت له أكبر معين فى كل الأزمات والملمات .

***

أما الأم الثانية التى وردت فى القصص القرآن فهى « يوكابد » أم موسى وقد جاءها المخاض .. وولدت موسى . وعندما أبصرته طفلا ذكرا .. أضطرب قلبها ، لأنها كانت تعلم أن فرعون قد أمر بقتل كل مولود فى بنى إسرائيل ، لأن الكاهن أخبره « أن ملك فرعود سيذهب على يد مولود فى بنى إسرائيل » وأصبح فرعون عدو الأطفال : وعندماخافت يوكابد على ابنها الوليد وحشيت أن يعلم جنود فرعون وعيونه بمولد ابنها فيأخذونه منها ، ويقتلونه كما فعلوا مع كثير من الأطفال ، واحتارت فى أمرها .. ماذا تفعل لتنقذ وليدها من الهلاك المحقق ؟

ولكن الله ألهمها أن تهيىء للوليد صندوقا ، وأن تضعه فيه ، ثم تلقى به فى النيل ، وترسل على الشاطىء أخته لقص أثره وظلت أخت موسى تقص أثره حتى رأت إمرأة فرعون وهى تأمر خدمها أن يأتوا بالصندوق العائم فى النيل ، وعندما عرفت أن طفلا فيه ، طلبت رؤيته فأحبته ثم طلبت من زوجها فرعون أن يتبنا الطفل ليكون ابنا لهما . بينما كانت « يوكابد » فى قلق شديد على مصير ابنها ، وكانت فى انتظار ابنتها لتخبرها ماذا حدث

للطفل . وعادت أخت موسى إلى أمها لتخبرها بما حدث ، فازداد قلق الأم على وليدها الذى وقع فى أيدى آل فرعون .

وحاولت روجة فرعون أن تجعل المراضع يرضعن الطفل ، ولكنه عاف المراضع .. وعندئذ انبرى « هامان » وأشار على أخت موسى قائلا .. إن هذه الطفلة تعرفه ، فخذوها حتى تعرف منها شيئا .. وقالت الفتاة .. إنما أردت أن أكون للملك من الناصحين ، وأننى أعرف مرضعا تستطيع أن ترضع الطفل الصغير .. فأمرها فرعون أن تأتى بمن يكفله .. وذهبت الفتاة إلى أمها واخبرتها بما حدث ، فأسرعت مهرولة إلى فرعون ، وتقدمت من طفلها لترضعه فالتقم ثديها من دون المرضعات ، فدهش فرعون وقال لها .

— من أنت ؟

— إننى امرأة طيبة الريح .. طيبة اللبن .. لا أوتى بصبى إلا قبلنى .

عندئذ طلب منها فرعون ، أن تأخذ الطفل لترضعه ، وأجرى عليها رزقا . فرجعت بالطفل إلى بيتها ، والسعادة تغمر جوانب قلبها ، فقد كافأها الله على إيمانها وصبرها . وأتمت « يوكابد » رضاع ابنها موسى ، ثم أرسلته إلى القصر الفرعونى ليكون لهم عدوا وحزنا . ولما بلغ اشده واستوى ، أوحى الله إليه بالنبوءة ، وأتاه العلم والحكمة .

***

والأم الثالثة هي «العذراء مريم» قبل أن تولد مات والدها قبل أن تقر عيناه برؤيتها ، وكانت امها تريدها أن تكون ذكرا ، فلما رأتها أنثى تحسرت وحزنت إلى ربها ، إذ كانت ترجو أن تلد ذكرا تهبه لبيت المقدس ، وتقفه على خدمته تقربا إلى الله ، وشكراً على نعمته . ولذلك سمتها «مريم» — ومعناها العابد — وطلبت إلى الله أن يعصمها بعنايته ، فحملتها إلى بيت المقدس ، وقدمتها إلى الأحبار ، ودفعتها إليهم قائلة :

— دونكم هذه البنت .. فإني قد نذرتها لخدمة البيت .

ثم تركتها وانصرفت . وهناك تكفلها زكريا . وكان دائما يتفقد شئونها ، ويتردد عليها في محرابها ليطمئن على حالها . واستمر على ذلك حتى رأى يوما شيئا عجب له ، بل فيما رآه . ذلك أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب ، وجد عندها رزقا ، وعهده بها ألا يدخل إليها أحد ، فلم يستطع تفسير ذلك ، وحاول أن يعرف ذلك السر العجيب ، فاتخذ عدة أساليب ، ولكنه لم يوفق ، فدخل عليها وقال :

— يامريم .. أنى لك هذا الذى لا يشبه أرزاق الدنيا وهوآت في غير حينه .. والأبواب مغلقة عليك ؟

— إنه من عند الله .. إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

عندئذ علم أن الله قد اختصها بمنزلة دونها منازل الناس ، وأنه قد اصطفاها على نساء العالمين .

وفى يوم ما اعتكفت مريم كعادتها تصلى لله وتعبده ، فاضطربت نفسها فجأة وداخلتها رهبة لم تعهدها من قبل وظهر امامها ملك من السماء ، وقد تمثل لها بشراً سويا ، لتأنس به ، ولا تنفر منه ، فحاولت الهروب ، واستعاذت بالله ، إذ ظنته معتد يا أثيما ، ولكنه اعاد إليها طمأنينتها ، وسكن روعها ، ثم طفق يتحدث إليها قائلا .. ؟

— انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا .

فغشيتها سحابة من الحزن ، وطافت بها موجة من الأسى ولكنها استجمعت شارد قوتها ، وقالت له .

— أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ..

فقال

— كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا . وكان أمراً مقضيا

ثم مضى واختفى .

وجلست حائرة تفكر فيما سمعت ، ولا شك أنها تخيلت ماسيقوله الناس عذراء تحمل من غير أن تتزوج ، فارتاعت وتملكها الخوف ، فظلت دائمة التفكير فى ذلك السر الرهيب الذى بدأ يتحرك داخل أحشائها . ومرت الأشهر ، وهى تقاسى الآلام النفسية المبرحة ، وتنتابها الوساوس ، وتمضى أكثر وقتها منفردة مع نفسها ، ورحلت عن « بيت المقدس » إلى « الناصرة » منبتها ومسقط رأسها فأقامت فى بيت ريفى بعيداً عن الناس متظاهرة

بالتعب والإعياء ، خوفا من أن يكتشف أحد السر الذى يتحرك فى أحشائها واقتربت ساعة الوضع ، وأحست ألم المخاض وخرجت من القرية . فألجأها المخاض إلى جذع نخلة يابسة وهى وحيدة منفردة بلا يد رحيمة تساعدها فى محنتها وتخفف آلامها ، وتعالجها وهناك قاست تلك الأم العذراء آلام الوضع . وفى الفضاء الواسع ولدت الطفل .

وعندما رأته اشتدت حسرتها ، وجعلت تتمنى لو ضمها القبر فقالت

— ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ..

ولكنها ما لبثت أن سمعت صوتا يرن صداه فى أذانها ، فبددت مخاوفها وناداها من تحتها ..

— « ألا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا » يجرى ماؤه فى تلك البقعة الجرداء .. « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » فكلى منه ليعيد إليك بعض مافقدت من قوة واشربى وقرى عينا ، واطمئنى قلبا ، بما ترين من قدرة الله التى أخضر بها جذع النخلة اليابسة ، وطيبى نفسا ، بما حباك الله من جريان الماء فى تلك البقعة المقفرة .

لقد كانت تلك المعجزة بلا شك أقوى دليل على براءتها ، وأسطع برهان على طهرها وكان ذلك المولود الصغير وقد أطلعه

الله على سبب حيرتها ، وكشف له عن دخيلة نفسها ، فكفاها الكلام بما يبرئها ، وأخذ على نفسه الجواب عما يوجه إليها . فقال :

— « فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا » وعندما ذهبت إلى قومها رأوا الطفل على ذراعيها

—يا مريم .. لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا » .

لم تنفرج شفتاها ، وعقد الحياء لسانها ، والتزمت الصمت وقالت :

إنى نذرت للرحمن صوما ، فلن أتكلم بكلمة ، أو أرد سؤالا ، وإن أردتم أن تعرفوا الحقيقة ، فاسألوا الغلام .

فعجبوا من أمرها . وسخروا منها وقالوا :

— كيف نكلم من كان فى المهد صبياً » .

وأنطق الله الطفل بتلك الكلمات التى برأت أمه من كل التهم والافتراءات ، وقال :

— إنى عبد الله اتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، وجعلنى مباركاً أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبرا بوالدتى . ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » ..

عندئذ انجلت عن صدر مريم الهموم ، وانداحت فيه نشوة هزتها ، فانهمرت دموع الفرح من مآقيها .

ودخلت مريم دار أهلها ، فإذا أشرقت الشمس جلست أمام الباب تداعب ابنها ، وتمد بصرها إلى ما حولها ، فتحس انشراحا ، كأنما ردت إلى شبابها ، والتلال توجت باشجار التين ، والزيتون فلاحت فى النور زاهية ، وانطلقت الأغنام ترعى العشب هادئة بريئة ، براءة ذلك الطفل الراقد فى حجرها يهز يديه ورجليه فى مرح ثم كبر عيسى عليه السلام ، وأدى الرسالة التى كلف بها ، وأنار السبيل إلى عبادة الله الحق المبين .

* * *

والأم الرابعة هى أم الرسول صلى الله عليه وسلم ، آمنة بنت وهب بن عبد مناف . وتبدأ القصة عام ٥٧١ ميلادية ، عندما اجتمعت فى ذلك اليوم النسوة عند السيدة آمنة بنت وهب ، كانت النساء يرحن ويغدون حول صاحبة الدار آمنة التى جلست هادئة لاتشاركهن حركتهن الكثيرة ، وإن كانت أكثرهن فرحا وسرورا . فقد كانت فى انتظار عودة القافلة التى خرجت من مكه منذ شهور وغايتها « غزة » فى جنوب الشام . وكانت الأنباء قد ترامت إلى أهل مكة بأن القافلة على أبواب هذه المدينة .

فخرج الشبان على عادتهم ينتظرونها وجعلت النسوة يجتمعن عند من كان لها فى القافلة رجل أو زوج . . أو ابن .. أو زوج ابنة .

ودخلت القافلة العائدة إلى مكة، فنزل الرجال منها ، وهرعوا إلى بيوتهم ، تستقبلهم زوجاتهم مرحبات ، ويستقبلون هم بيوتهم فرحين راضين .

وانتظرت آمنة بنت وهب أن يعود زوجها عبد الله ، فلم يعد ، فحسبت أنه لقى احدا فى طريقه إلى داره ، فحدثه ، وطال الحديث فعاقه قليلا ، ولكن الانتظار طال ، وعبد الله لم يعد ، فانتابها القلق ، واشتاقت إلى رؤية زوجها الذى لم يبلغ الخامسة والعشرين. ولكن عبد الله لم يعد ، وعلمت آمنة بنت وهب أن زوجها فى « يثرب » عند اخوال جده ، لأنه مريض مرضا عاقه عن السفر إلى مكة .

ثم جاءها النبأ المفجع ، فقد فاضت روح زوجها وهو فى « يثرب » ودفن بها عندئذ انطوت على نفسها ، وكل عزائها الجنين الذى يتحرك فى بطنها ، والذى لا تشعر لحمله بما يشعر به النسوه من ألم وتعب .

وفى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وضعت آمنة جنينها ، فنزل إلى الحياة يتيم الأب وأسرع عبد المطلب والد عبد الله إلى آمنة ، فوجد طفلها إلى جانبها ، فحمله وقبله ، وأسرع به إلى الكعبة ، حيث سماه « محمداً » .

وعندما أصبح محمدا فى السادسة من عمره ، ذهبت به أمه الى يثرب ليزورا معا قبر « عبد الله » والده ، زوجها ، وليرورا

أيضا اخواله من بنى النجار فلما فرغت الزيارة وقفلا عائدين، ماتت آمنة ، ودفنت فى « الأبواء » وهو مكان بين مكة والمدينة . وبذلك كمل يتم الطفل .

وقد عاش محمد عليه الصلاة والسلام مع والدته قبل مماتها بثلاث سنوات ، لم يشعر خلالها بقسوة اليتم ومرارته ، فقد سبغت عليه من حنانها ، وعطفها ، بحيث عوضته فقدانه لأبيه .

ولاشك أن أمهات الأنبياء إسماعيل وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم جميعا أزكى الصلاة والسلام ، قد قمن برعاية خاصة لأطفالهن ، بالنسبة للظروف الخاصة التى أحاطت كل نبى .





للفنان عبد العزيز جاويش

الأم وبطولات نادرة

الأم .. وبطولات نادرة

كانت مجموعة من الأمهات ، يجلسن خارج بيوتهن الصغيرة ، فى إحدى قرى غزة ، تحت أشعة الشمس ، يتسامرن ويتجاذبن الأحاديث ، ويروين بطولات أبنائهن الفدائيين الذين يدمرون ، وينسفون كل شىء يعتقد الإسرائيليون أنه عزيز لديهم .وكانت كل أم ، تلتقط خيط الحديث لتكون هى فارسة الجلسة وتروى مغامرات ابنها الفدائى . وهكذا تروى كل أم حكاية بطولة ابنها .. إلا تلك الأم..أم سليم .. التى لم تجد شيئا تتحدث عنه .. لأن ابنها سليم كان مصابا بقصور فى الإدراك العقلى .. لا يستطيع أن يفعل شيئا . فكانت تلف لسانها بنسيج من الألم والصمت ..

وهكذا كانت الأمهات ، يفترشن الأرض كل يوم بعد أن يفرغن من أعمال المنزل ليتجاذبن الحديث عن كل الأشياء وخاصة .. بطولات أبنائهن ، والجرائم التى يرتكبها الإسرائيليون

فى مدينة غزة . وكانت أم سليم .. تحلم بذلك اليوم الذى تستطيع فيه أن تكون فارسة الجلسة .. بين الأمهات .. لتحكى .. وتحكى أى شىء تحكى عنه .. أنها لا تصبح .. ولاتمسى إلا وتنام مع حلمها ..

أما هذا اليوم .. فإن أم سليم . لايمكن أن تنساه من ذاكرتها .. بل أن أمهات القرية أيضا .. أصبحن يؤرخن لأحداث القرية بذلك الحدث الهام الذى وقع لأم سليم .

فى ذلك اليوم .. فوجئت أم سليم ، بأحد الشبان الفدائيين وهو يقتحم عليها البيت الصغير ، طالبا منها أن تخبئه ، لأن الجنود الاسرائيليين يطاردونه . كان إبنها « سليم » جالسا كعادته .. فى ذهوله ، وشروده المستمر .

وفجأة .. تراءى أمام عينيها حلمها القديم .. وتتابعت على ذهنها الحكايات والروايات .. والقصص التى كانت كل أم ترويها . ولكنها حاولت أن تبعد تلك الفكرة عن ذهنها ، لكن الأحداث قد تتابعت بسرعة .. ودقات الجنود الاسرائيليين العنيفة على الباب وهجماتهم الحيوانية ، تشل أى تفكير هادئ تحاول أن تلتمس فيه الخروج من هذا المأزق .

وبسرعة خبأت الشاب الفدائى ، والتقطت منه بندقيته ، ودفعتها إلى يد ابنها ، المذهول الشارد .

وبهدوء .. فتحت الباب . وحاول الجنود الاسرائيليون أن يدخلوا ليفتشوا البيت الصغير ، ولكنها قالت لهم :

— لاتبحثوا عنه .. انه ابنى .. كان فى إحدى العمليات .. ولم يكن هاربا منكم .. إنما كان يريد أن يودعنى .. فقط ..

ودفعت إليهم بابنها « سليم » وقلبها يتمزق ألما ، وحزنا .. لكنها مع ذلك كانت أسعد أم .. فقد أنقذت فدائيا شابا حقيقيا وفى نفس الوقت جعلت من ابنها « سليم » شابا فدائيا .. هو الآخر .. ألم ينقذ بنفسه حياة فدائى .. إنها أيضا عملية فدائية . واحتضنت الأم ابنها « سليم » وقبلته .. ثم شيعته .. وهو يختفى من أمامها ، وسط شرذمة من الجنود الاسرائيليين . وسارت بخطى وئيده ، والدموع تنساب من مآقيها .. والتفت حولها مجموعة الأمهات .. كأنهن فى حفل عرس بهيج ..

أم الشهداء

!!! أما هذه الحكاية .. أو النادرة .. فهى تروى حكاية أم عجوز ، كان لها ثلاثة أبناء ، ينيرون لها ظلمة الحياة ، وخاصة أيامها القليلة فى هذه الدنيا . وفجأة نشبت الحرب بين وطنها وبين عدو حاول أن يعتدى على أرض الوطن . ودارت رحى الحرب .. وابتلعت الكثير من الجنود ، من الطرفين المتقاتلين . والحرب كالحيوان الشرس ، لايمكن التغلب عليه ، إلا باغراقه فى بحر من الدماء .

واشترك ابنها الأكبر فى الحرب ، مدافعا عن الوطن . ولكنه استشهد . وحزنت الأم كثيراً ولكنها تمسكت بالإيمان .. وبأن الموت حق .. وتغلبت على الأيام بالصبر .

لكن وطأة الحرب كانت قاسية على وطنها ، وكان لابد من الدفاع عن الوطن ، أمام هجمات العدو المتلاحقة .. فاشترك ابنها الثانى فى القتال العنيف . وقام ببطولات نادرة وأدى واجبه ، كما ينبغى أن يكون الواجب .. لكنه فى النهاية .. سقط شهيداً وهو يشترك فى إحدى عمليات الهجوم على قوات العدو .. وعلمت الأم بنبأ استشهاد ابنها الأكبر فى المعركة الشرسة مع العدو . فحزنت أيضا .. وتساقطت دموعها الحارة ، لكنها بلغت غصتها .. والتفت بالصمت راضية بقدرها ومضغت تحت أسنانها .. كرات الألم والحزن والمرارة مرة أخرى . وظلت تحيا .. على ذكرى ولديها الشهيدين ، وتملأ عينيها برؤية ابنها الشاب .. الثالث . وهو يرعاها . ويتولى أمرها .. ويخفف عنها قسوة الألم .

وهجم العدو على المنطقة التى يوجد فيها بيت الأم وابنها . واضطر الابن مثل بقية الشبان أن يدافعوا عن منطقتهم ، ودارت معركة عنيفة ، إنهزم فيها العدو . وتكبد خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ، واحتفظت تلك المنطقة بكرامتها ، بفضل شجاعة أبنائها ولكن الابن الثالث كان قد استشهد مع الكثيرين دفاعه عن كرامة الوطن .

واحتفلت الدولة بهذه الأم التى إستشهد أبناؤها الثلاثة .. ومنحوها وسام الدولة .. وفى الاحتفال الكبير .. كانت الأم تبكى بشدة ، وتنهمر دموعها بغزارة .. فقال لها مندوب الدولة :

— إننا نحييك يا أمنا .. ونرجوا أن يكون وسام الدولة لك . شفيعا .. ومواسيا لآلامك .. لأنك قدمت ثلاثة أبطال للمعركة . وسوف ترعاك الدولة مدى الحياة .

وتوقفت الأم عن البكاء ، وقالت لمندوب الدولة فى غضب :
— إننى لا أبكى لاننى قدمت ابنائى شهداء .. ولكننى ياسيدى أبكى .. لأننى لا أستطيع أن أمنح الوطن إبنا رابعا .

وحكاية بطولة هذه الأم .. قد تعتبر من الأساطير .. ومع ذلك فيمكن أن تحدث فى أيامنا هذه .. فالأم .. هى الأم .. مهما اختلفت العصور ، وتتابعت الأزمنة . فيقولون أن أهل « اسبرطه » كانت لهم عادة غريبة إذ كانوا يرمون الأطفال الضعاف من فوق جبل البطولة ، دون أن يذرفو عليهم الدمع .. والسبب فى تلك العادة أنهم كانوا يريدون أن تكون الأجيال المتتالية قوية ، جبارة ، حتى لا تكون قادرة على حماية « اسبرطة » فقط بل الاستيلاء على باقى الجزر اليونانية . وكلنا لا ينسى الحرب الطويلة التى دارت بين « اسبرطه ، واثينا » .. وانتصرت « اسبرطة » فى النهاية .. لأن أهلها كانوا يدربون أولادهم الأقوياء على فنون الحرب

وللقتال النزال والمصارعة . بينما كان أهل أثينا يتناقشون ويتحاورون ويتفلسفون .

وقد بدأت هذه الحكاية .. عندما اشتبك أهالى أسبرطة فى قتال عنيف ، وفى إحدى المواقع ، بجوار قرية صغيرة ، كان القتال شديدا ، والبرد قارصا ، وفر أحد الجنود الشبان من المعركة الدائرة .. وكان من أهالى القرية التى خرج كل شبانها للقتال .. وهو من أهالى اسبرطة ..

وكان يستتر بالظلام .. وهو يقترب من القرية حتى لا يراه أحد . فلا يوجد فى القرية غير النساء والأمهات .. والأطفال . وساعده فى الوصول إلى القرية ليلا .. ولم يره أحد ، أن العاصفة كانت شديدة ، ودوامات الهواء تلطم كل شىء أمامها ، وكم لطمته كثيراً ، فكان يحتمى من لطمات العاصفة ، بجدران البيوت الصغيرة ، حتى وصل بيت أمه ، ودق على الباب دقاته حتى استيقظت أمه ، وسألت عن الطارق من خلف الباب ..

وفتحت الباب الأم وهى فرحة بعودة ابنها من ميدان القتال .. بعد الانتصار بدون شك ..

وسألته :

— هل انتصرتم على الأعداء ..

— كلا .. المعركة مازالت دائرة .

— وأين أولاد القرية .. هل جاءوا معك .. ؟

— كلا

— ولماذا ؟

— إنهم في المعركة

— ولماذا جئت أنت لوحدك . ؟

— جئت لأراك يا أماه

— لاتكذب على ..

— إن المعركة حامية .. وخشيت أن أموت .. فهربت ..

— وهل تعتقد يا بنى أن هنا .. المكان الذى تستريح فيه ..

— وإلى أين أذهب يا أماه .. ؟

— هل تريد أن تجعل من أمك سخرية أمام أمهات القرية .. يشيرون إلى .. كلما مرت .. أنها أم الجبان .. الجبان ..

— لا .. ياأمى

— لو كنت أعلم إنك ستصبح جبانا .. لكنت رميت بك من فوق الجبل .. وأنت طفل .. أذهب

— أماه .. أماه

— إذهب .. قبل أن يراك أحد من أهل القرية .. ولاتعد .. إما بطلا .. أو أسمع عنك أنك قد استشهدت ..

وخرج الابن يجرجر خلفه ذله وعاره ، أمام أمه .. أما الأم .. فبعد أن أغلقت الباب خلف ابنها ، لتبتلعه العاصفة .. ظلت تبكى .. وتبكى .. وتبكى . إنها تحمل بين ضلوعها قلب أم .. حتى ولو كانت أما من « اسبرطه » . ويقولون فى القرية : أن هذه الأم لم تكف عن البكاء يوما .. حتى فقدت نور عينيها ..

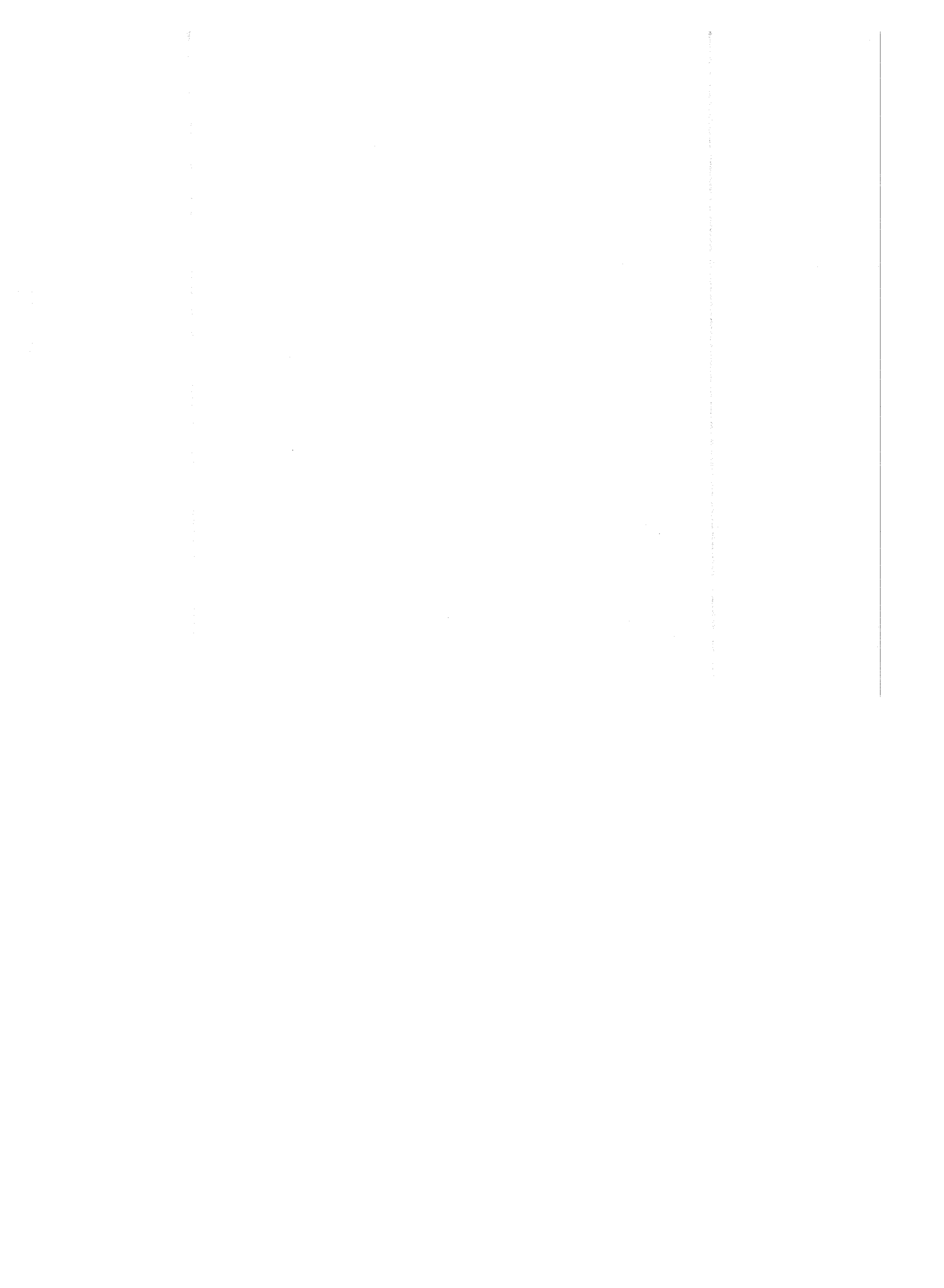
وأطلقوا عليها اسم أم البطل .. لأن ابنها وجدوه شهيداً ، بعد أن قتل ثلاثة من جنود العدو بالقرب من القرية .. ولم يدر أحد من أهالى القرية السبب فى وجود هذا الابن قريبا من القرية ..

هل رأى جنود الاعداء وهم يتسللون إلى القرية ، تاركين المعركة فطاردهم حتى قتلهم وقتلوه ..

وأسئلة أخرى كثيرة .. لم يعرف أهالى القرية الإجابة عنها ، سوى دهشتهم من أمه التى ظلت تبكى كثيراً . . وتبكى .. لأنها الوحيدة التى كانت تعرف الحقيقة .. !!!



من صور الأمومة البطولية



من صور الامومة البطولية

فى أحضان الأم العربية ، جاهلية ومسلمة نشأت تلك الأجيال المتعاقبة من العرب الفاتحين ، ومن جلال الأم العربية الذى صوره لنا التاريخ فى مناسبات عدة استمد هؤلاء الذين استشهدوا فى الفتح والذين بارك الله لهم فى عمرهم على السواء ، شجاعة وقوة وبأسا . لقد كانت الأم العربية خير عنوان لذلك المجتمع العربى الإسلامى ، المتماسك . . فى سبيل تحقيق غايات انسانية عليا وأنها لأقوى ما يمثل تضحية الأمومة فى سبيل أبنائها .. اعترافا منها بسنة الحياة التى تفنى جيلا بعد جيل .

وإذا كانت هناك صورة مشرقة من صور الأمومة البطولية فى تاريخنا العربى والإسلامى لقفزت على الفور تلك الصورة الواقعية البعيدة عن خيالات القصاص ، وأوهام الشعراء والتى

التقطتها الدكتورة سهير القلماوى من سطور تاريخنا الإسلامى وأبرزتها فى صورة مشرقة .

لقد كان السارى فى جنبات الكعبة يرى عجوزا ، عمياء ، طويلة كسعف النخيل ، وان تكن شديدة المراس قد قاربت المائة . وأوهنت الأيام من قواها البدنية أكثر ما يمكن أن توهن ، أنها أم عبد الله . أنها أسماء بنت أبى بكر تصعد الدعاء إلى رب الكعبة أن ينصر الحق ، وأن تنزاح عن المسلمين غمة الخلاف . ويتخلل صوت دعائها بل تطغى عليه ضربات قوية من حجارة ترسلها مجانيق الحجاج على الكعبة ، وبيت الله العتيد .

ويستمر الحصار شهورا سبعة ، وجاء عبد الله إلى أمه قائلا :

— ياأماه .. قد خذلنى الناس حتى أهلى وولدى .. ولم يبق معى إلا اليسير ، ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من نهار .وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

وتقول له أسماء فى جلال وعظمة :

— الله الله يا بنى .. إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه فامض عليه ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية فيلعبوا بك ، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، هلكت نفسك ومن معك .

ثم تقول له مستطردة :

— لم خلدوك فى الدنيا ، القتل أحسن ما يقع بك ياابن الزبير ، والله ، لضربة بالسيف فى عز ، أحب من ضربة بالسوط فى ذل .

— ياأماه . . أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى .

فقالت له بصوتها المتهدج المحشرج تلك الكلمات الخالدة :

— يابنى .. إن الشاة المذبوحة لا يضرها السلخ .. امض على بصيرتك واستعن بالله .

ونهض عبد الله من جلسته إلى جوار أمه ، وقد ولد مرة أخرى من روح هذه الأم العظيمة ، قام عبد الله فقبل رأسها وقد ملأه العزم وقال :

— هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعيا إلى الله ، والله مادعانى إلى الخروج إلا الغضب لله عز وجل أن تهتك محارمه ، ولكنى احببت أن أطلع على رأيك فيزيدنى قوة وبصيرة مع قوتى وبصيرتى .

واقترب عبد الله ليقبل أمه قبلة الوداع ، فقالت له —

— أهذا وداع .

— ياأماه إنى أودع ، لأنى أرى هذا آخر أيامى فى الدنيا .

وارتجفت الأم وتساقط الدمع : الشحيح من العين المظلمة الواهية

— امض يابنى على بصيرتك ، وادن منى أودعك .

وارتبك الفارس العربى ، وسالت نفسه حنانا على هذه الأم المتجلدة تجلد الصخر ، ثم خرج عبد الله إلى جنده شعلة ، على كهولته يندفع فى الرعيل الأول من المحاربين . وسقط البطل العربى وارتوت الأرض الطاهرة بدماء ابن أسماء الزكية . وإذا هو فعلا مصلوب . وإذا جثته فعلا قد انتزع منها الرأس ، وخرجت الأم من خبائها إلى فناء الكعبة لتطلب أن تقاد إلى حيث جثة ابنها . وعند أقدام الجثة وقفت .

وكم تود أن ترى ، وكم تود ألا ترى . . إنها عمياء ، لكنها لو ابصرت لدعت على نفسها أن يصيبها العمى ، وهى عمياء بالفعل ، ولكنها تطلب من الله أن يرفع عنها غشاوة الظلمة لترى وجه عبد الله الحبيب :

تلك كانت صورة واحدة من صور بطولة الأم وما أكثر الصور واللوحات للأم العربية سواء فى التاريخ أو فى الواقع الذى نعيشه الآن . ولكن أين موقف القاص العربى من « الأم » لقد بحثت كثيراً فى أدبنا العربى الحديث ، وخاصة فى الفن القصصى فلم أجد للأسف عملا فنيا كبيرا يصور لنا « الأم »

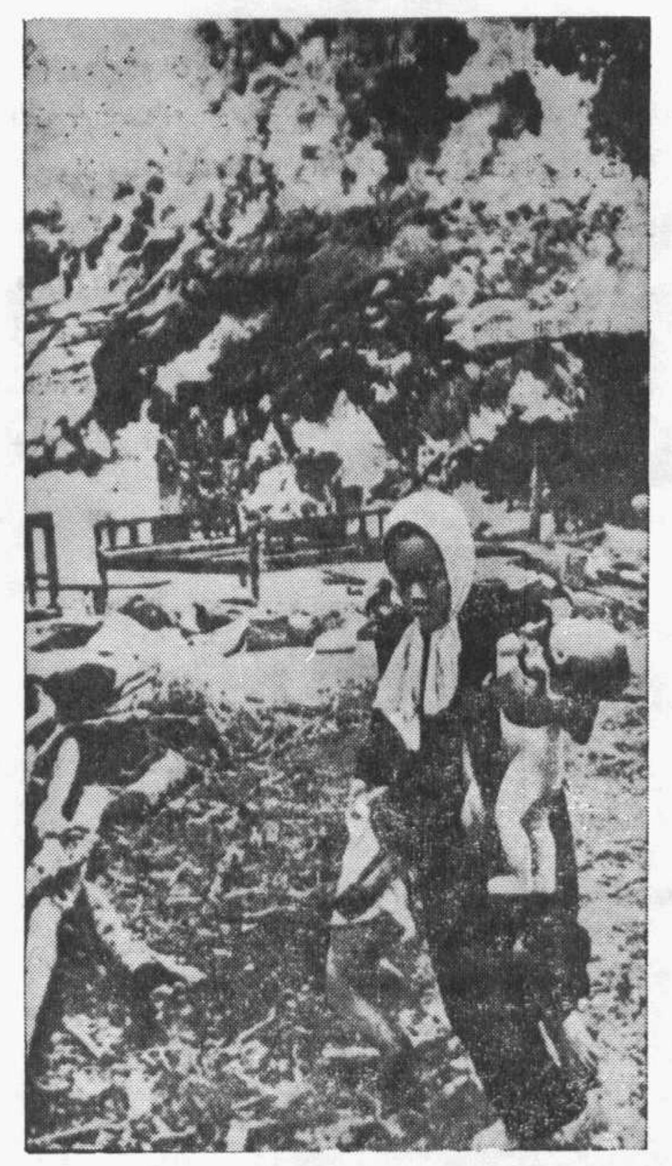
إذن لماذا يخلو أدبنا القصصى من عمل فنى كبير يدور حول

الأم .. بالرغم من أن قصص امهاتنا العربيات ، والبطولات التى قمن بها خير مادة حية للفنان القصاص .

وإن واقعنا الحديث ، والأحداث والأزمات التى مرت بها « الأم » فى فلسطين السليبة مادة خصبة ، لخلق عمل فنى كبير فى الرواية العربية الحديثة .

ونحن نأمل أن يصورلنا قصاص عربى فى الأيام القادمة لوحة خالدة عن « الأم » العربية .



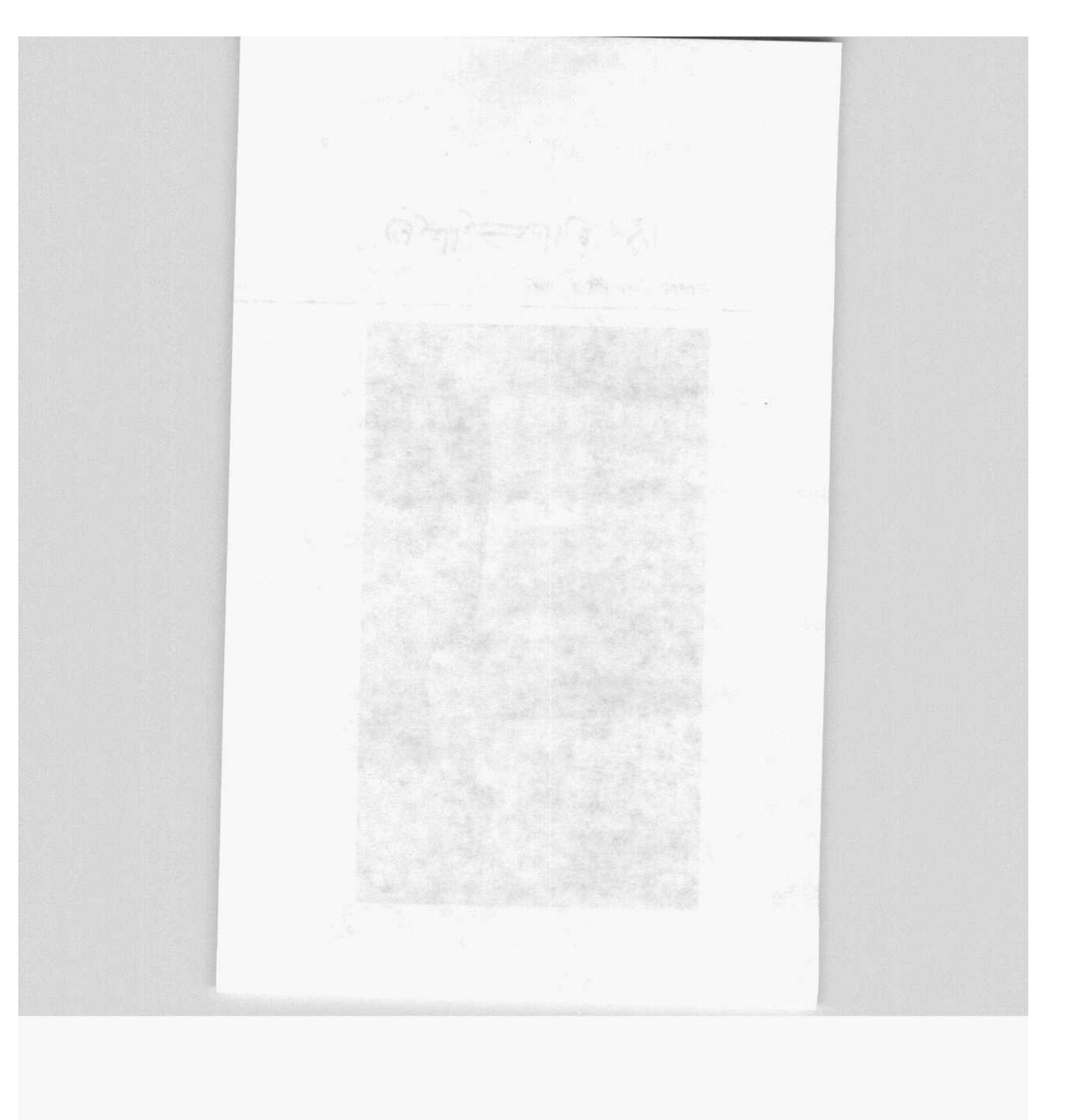


 اروع صورة لام وهى تنقذ اطفالها فى حرب فيتنام



للمثال الراحل أنور عبد المؤمن

الأم في الفكر العربي



الأم .. فى الفكر العربى

من المؤكد أن كل فرد منا يحب أمه حب عبادة كما يقولون . ولكن .. أقصد الرجل العربى .. نادراً مايتحدث عن أمه أو يشيد بها . بالرغم من مرور مئات السنين على العصر الجاهلى . وبالرغم من تطور المجتمع العربى طوال تلك السنوات . فما هى رواسب العقلية العربية التى مازالت بقاياها تظهر بوضوح فى عقلية الرجل العربى الآن تجاه أمه . ولماذا سميت الأم بهذه الكلمة ، وما مدلولات كلمة الأم عند العرب .

لقد استلفت أنظار المستشرقين وهم يطالعون الكتب العربية فى العصر الحديث ، وخاصة كتب الأنساب ، أن هناك بعض القبائل العربية كانت تنتسب إلى أمهاتهم لا إلى آبائهم . وقد عرف ذلك « بالأمومة » أى أن الرئاسة فى هذا النظام العائلى ترجع إلى الزوجة أو « الأم » وعندئذ ينسب أهل القبيلة أو الأمة إلى أمهاتهم بدلا من آبائهم ، وقد استدلوا على هذا ببعض الدلائل.

منها تانيث أسماء القبائل العربية ، واشتقاق كلمة « أمة » من « أم » والتعبير بكلمة « بطن » عن الفصيلة ، وهى أحد أقسام القبيلة ، واستدلالهم بذلك على أن « الام » أصل النسب عند العرب . وأن الصلة بين الولد وأهل أمه أقوى منها بينه وبين أهل أبيه ، وبأن الولد يرث كثيراً من صفات أهل أمه ، وأنه يشبههم فى الخلقة أكثر مما يشبه أهل أبيه ... ثم اطلاق كلمة «خال » على كل فرد من أهل الأم . وأن بعض الأمهات كن يفضلن بقاء أبنائهن مع أخوالهم وأن بعض الأولاد عندما يكبرون يلجأون إلى أخوالهم أو أنهم ينضمون إلى أخوالهم فى الحرب ضد أهل آبائهم . وأنه يكون للولد على أخواله بعض الحقوق كالالتجاء إليهم فى حالات الأخذ بالثأر إذا عجز أهل أبيه عن ذلك أو رفضوا مساعدته كما يكون لهم عليه بعض الواجبات .

وأن المرأة فى ذلك الحين كانت عند الزواج تستقبل زوجها فى خيمة تملكها ، كما كانت تقدم له رمحا فى هذه المناسبة . وكان الرمح والخيمة من علامات الرئاسة عند العرب . وأنه كان من بين العرب ملكات كزنوبيا « الزباء » مما يدل على ازدياد سلطان المرأة . وهناك أدلة كثيرة أوردها المستشرقون ليدللوا على وجود الأمومة عند العرب فى الجاهلية . ولكن تلك الأدلة من الممكن مناقشتها وإبراز الصحيح منها . وليس هذا هو مجالنا فى هذا البحث .

الأم :

وقد سميت الأم « أما » من « أم » بمعنى قصد ، لأن زوجها وأولادها يؤمونها لحاجتهم إليها . ويتخذ الباحث كمال أبو ريده هذا الاشتقاق دليلا فى الرد على المستشرقين فى رسالته « الأمومة عند العرب فى الجاهلية » فيقول :

فإذا كانت « الأم » مقصد هؤلاء جميعا ، ومن عندها يتفرقون وينتشرون ، وإليها يعودون ويتجمعون ، سميت « أما » بمعنى مقصودة أو قصدا ، ثم لما كان كل فرد من أفراد الجماعة عونا للآخر ، ومقصدا له يفزع إليه فى الحاجات والملمات . وكان كل منهم بالقياس إلى الآخر كالأم بالقياس إلى زوجها وابنائها . فكما أن هؤلاء يقصدون المرأة فى حاجاتهم . فكذلك يقصد الرجل ويؤمه لما يعرض له ويهمه من الأمور . فلذلك جاز لنا أن نطلق عليه لفظ « أم » يشهد بذلك تسمية العرب رئيس القوم « أمًّا » كما كان الناس يفزعون إليه فيما يهمهم من الأمور والمشاكل ، ولايلزم أن يكون رئيس القوم أبا لهم كلهم أو بعضهم . ثم أطلق على الجماعة كلها لفظ « أمَّة » للتمييز بين اللفظ الدال على المرأة ، واللفظ الدال على الجماعة وبذلك تتضح لنا الصلة بين لفظى « أمة » و « أم » والسبب فى اشتقاق « الأمة » من « الأم » .

ومنذ بدء الخليقة كانت هناك تسميات . وقد أطلق اسم آدم وحواء ليتميزا بتلك التسمية . ولكل إنسان فى الوجود اسم أطلق عليه منذ الصغر ليكون علما يعرف به ويميز عن غيره من بنى جنسه

وهكذا أطلق الناس على أبنائهم أسماء ليعرفوا بها. ولعل أقدم تلك الأسماء كما ذكرنا آدم وحواء . فآدم أى الذى فيه « أدمة » وهى السواد أو السمرة التى تعلوها كدره . وكذلك حواء أو التى فى شفتها حوة أى سواد ، ذلك خلافا لما جاء فى التوراة من أنها مشتقة من الحياة . تلك هى أقدم الأسماء التى تدلنا على أن التسمية أول مانشأت كانت علامة أو رمزا لصاحبها . فلما كبر الناس لم يعد من السهل العثور على علامات كافيه لكل شخص تميزه عن غيره لجأ الناس إلى الأسماء للتمييز والتفرقة . فهل تعمد الناس حين أطلقوا الأسماء أن يختاروا للذكور من الناس أسماء مذكرة . وأن يختاروا للنساء أسماء مؤنثه كلا بالطبع . ولكنها الصدفة هى التى جعلت الناس يطلقون الأسماء هكذا حتى أن بعض الأسماء المؤنثه قد أطلقت على مذكر والعكس . وقد كان اشتراك الجنسين فى التسمية عند العرب فى الجاهلية من المشاكل الغامضة التى أتبعت النسابين . فقد رأينا أن كثيرا من العرب إنتسبوا إلى أمهاتهم . . فلماذا . . ؟

ويمكن ارجاع ذلك إلى أسباب نفسيه أكثر منها اجتماعية . لكون الأم أكثر حبا لابنها من أبيه فى الغالب ، لأنها هى وحدها التى تحملت مشاق حمله وولادته ورضاعه والقيام بمطالبه وفى قصص السير تروى هذه الحكاية . إذ قيل أن أحد الأبناء حكم عليه بأن يحرق فلما وضع على حديد محمى فى النار . وأثرت الحرارة فى

قدميه . رأت أمه ذلك . فقضمت ثدييها و ألقت بهما إلى إبنها ليضعهما تحت قدميه ليتقى بهما حر النار .

و فى حالة نداء الإنسان بأسمه مضافا إلى اسم أمه . فغالبا ماتكون هناك صلة بين المنادى . والمنادى من جهة الأم . و لذلك يناديه بإسمه مضافا إلى اسم امه على سبيل الايناس والتذكير بتلك الصلة القوية والرابطة المتينة بينه و بين المنادى عن طريق أمه .

و قد يكون النداء بهذه الطريقه لتشريف المنادى أو للحط من من قيمته إذا كانت أمه ذات شهرة خاصة ، سواء أكانت تلك الشهرة طيبة أم سيئه . و يمكن تقسيم ذلك إلى ثلاثة أقسام :

أولا : جماعة كانوا ينسبون أحيانا إلى أمهاتهم لشرفهن و فضلهن على غيرهن من النساء . و من هؤلاء على بن أبى طالب . و أمه فاطمه بنت أسد بن هشام . وكانت من أشرف النساء . ومنهم الحسن والحسين ابنا على بن أبى طالب من فاطمة الزهراء عليهم السلام وكانا يسميان ابنى فاطمه لشرف أمهما لمكانها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما جاء فى خطبه زهير بن القين . حين هجم أتباع عبد الله بن زياد على الحسين بن على حيث يقول :

« عباد الله . أن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية . فإن لم تنصروهم ، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم . فخلوا بين هذا الرجل و بين ابن عمه يزيد بن معاويه ، فلعمرى أن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين »

ثانيا : جماعة نسبوا إلى امهاتهم أحيانا لمنقصة فيهن . ومن هؤلاء معاوية بن أبي سفيان الذى يقال له : معاوية بن هند ، لأنه كان فيها هنات ومغامز ، ومن ذلك قسوتها البالغة ، فقد حاولت أن تأكل من كبد حمزه ابن عبد المطلب رضى الله عنه . كما كانت تختن الجوارى فى ذلك الوقت الذى كان فيه فعل هذه الصناعات محتقرا عند العرب ، ولذلك قيل لمعاويه . ابن هند . وابن آكلة الأكباد . ومنهم عنترة بن شداد العبسى ، الذى كان يقال . ابن زبيبه . . لأن أمه كانت سوداء . .

ثالثا : قد ينسب الناس شخصا إلى أمه لأسباب أخرى غير تلك الأسباب ، كالرغبه فى التمييز والتفرقة كما لو كان هناك عدد من الأخوة لأب واحد ، من أمهات شتى ، يفضل بعضهن بعضا كما هو الحال فى أولاد على بن أبى طالب . فمنهم من هم أولاد فاطمة كالحسن والحسين ومنهم من هم من نساء أخر . ومن هؤلاء محمد بن على الذى هو ابن الحنفية . والحنفية هى بنت جعفر بن قيس بن سلمه وذلك للفرق بينه وبين أخوته من السيدة فاطمة لشرفها ، وفضلها على الحنفية لصلة فاطمة بالرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان بعض العرب ينسب نفسه إلى أمه أحيانا لحسن شهرتها كما فعل ابن العرقة ، بل ان منهم من تعدى نسبته إلى أمه ورفع النسب إلى أبيها كما حدث للحسن بن على حيث قال فى إحدى خطبه :

« أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا

الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله . أنا ابن البشير . أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعى إلى الله بأذنه والسراج المنير » .

فهو هنا يرى نفسه ابن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن ابن بنته . وهذا هو ما كان يراه الناس أنفسهم ، وبذلك دعاه معاوية بن أبى سفيان . .

وكان بعض العرب إذا وجد فى قريباته امرأة شريفة حسنة الشهرة ، تعلق بنسبها طمعا فى أن يحظى بنصيب من ذلك الشرف وتلك الشهرة

وخطب عبدالله بن الزبير خطبة ، نال فيها من على عليه السلام فقام محمد بن الحنفية ليرد عليه ، فلما فرغ من كلامه قال ابن الزبير عذرت بنى الفواطم يتكلمون ، فما بال بنى الحنفية ؟ فقال محمد ياابن أم رومان ، ومالى لاأتكلم أوليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى ، وأم أخوتى ، أو ليست فاطمة بنت أسد بن هشام جدتى أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جده أبى ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ، ما تركت فى بنى أسد عظما إلا هشمته ، وأن نالتنى فيه المصائب . . صبرت .

هذا هو محمد بن الحنفية يفخر بنساء منهن جدته . وجدة أبيه . ولم يفخر بأمه .

ولذلك فإن العرب لم يقتصروا على الأم فى تعبيرهم الإنسانى

بالنساء ، بل كانوا يتعدون الأم إلى الجدة الأولى . أو إلى جدات فوقها ما دامت هناك صلة ولو بعيده بين هذا الإنسان وبين ذلك تلك التي يعير بها . فهذا معاوية بن أبي سفيان كان يعير بجدته « حمامه » أم أبي سفيان . وكانت بغيا في الجاهلية ذات راية . ومن بين الأسباب التي قد ينسبون الابن من أجلها إلى أمه ، موت الأب والطفل صغير ، وكفالة الأم له . وكانوا ينسبون الطفل في بعض هذه الحالات حتى إلى الحاضن . أو الجهل بالأب كما كان يحدث لابناء البغايا إذا رفض من ترى البغى أنه أب الولد أن ينسب إليه .

وهناك بعض المعتقدات المتصلة بالأمومة . منها ذلك الاعتقاد الذى ساد بين المسلمين وهو أن الإنسان سيأتى يوم القيامة بإسمه مضافاً إلى إسم أمه . فيقال له : يافلان ابن فلانه . بخلاف ماكان عليه الآن فى الحياة الدنيا . وقد رأى بعض الباحثين أن هذا الأعتقاد ربما كان راجعا إلى عدم تفسير صحيح للآية الكريمة التى تقول « يوم يدعى كل أناس بامامهم » وقد فسر بعض المفسرين كلمة « امام » هنا بأنها جمع « أم » ورأى البعض الآخر من الباحثين أن المقصود « أمامهم » الامام » الذى جمعه « ائمة » لأن الواجب أن يحضر الامام وهو النبى أو الرسول الذى أرسل إلى هؤلاء الناس بينها حتى يواجهوا به ، ويكون شاهدا عليها ، فلايمكنها الأنكار . ومن ذلك أيضا ماروا ه سعيد بن عبد الله الأزدى أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال : إذا مات أحدكما فسويتم عليه التراب ، فليقول أحدكم على رأس قبره ثم يقول :

« يا فلان بن فلانه . فأنه يسمع ولا يجيب . ثم ليقل : يا فلان ابن فلانه « الثانية » فانه يستوى قاعدا ، ثم ليقل : يا فلان بن فلانا « الثالثه » فإنه يقول : أرشدنا يرحمك الله ، ولكن لا تسمعون فيقول له : أذكر ما خرجت عليه من الدنيا ، شهادة أن لا إله إلا الله . وأن محمدا رسول الله . وإنك رضيت الله ربا ، وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عيه وسلم نبيا ، وبالقرآن إماما . فأن منكرا ، ونكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول : إنطلق بنا ، . ما يقعدنا عند هذا ، وقد لقن حجته . ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما . فقال رجل : يا رسول الله . . فإن لم يعرف إسم أمه ؟ قال فلينسبه إلى حواء .

وعاطفة الأمومة عند العرب لها إتصال وثيق بالأساليب العربية وعن طريق تلك الأساليب يمكننا أن نعرف أصالة هذه العاطفة مثلا : أيضاف أسم الانسان فى الأساليب الدالة عليها إلى الأم فقط أم إلى الأب فقط أم إلى كليهما ؟ وهل يطغى نصيب أحد الوالدين على نصيب الآخر منهما ؟ ولعل من أبرز العواطف عند العرب عاطفة التفدية ، فتراهم يقولون : «فداك أبى « أوفداك أمى » ومن قول عائشة :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ومن قول أبى بكر : « أى

رسول الله بأبى أنت وأمى بل نفديك بابائنا وأنفسنا وأموالنا » .
والذى نلاحظه أن عبارات التفدية بالوالدين أحدهما أو كليهما ، كثيرة ، ولكن لم يعثر على صيغة وردت فيها الأم وحدها ، وقد يرجع هذا إلى سببين :

الأول : أن المرأة لم يكن لها قيمة إجتماعية أو أدبية فى العصر الجاهلى بالقياس إلى الرجل .

الثانى : أن العرب كانوا يستحيون من ذكر أسماء أمهاتهم أو حتى الإشارة إليهن بكلمة أم وكانوا يعدون ذكرها أو الإشارة إليها انتقاصا لها وأهانه ما داموا فى حل من ذكرها .
ولما جاء الإسلام وعلت منزلة المرأة . ظلت صيغ التفدية كما هى ، فلم تذكر المرأة وحدها فى صيغة منها .

وهناك أسلوب أخر من الأساليب العربية ، وهو أسلوب التعجب وهو عدة أنواع ، ولكننا هنا لا يهمنا إلا صيغة أدبية هى «لله در ابياك» وصلتها بالأمومة ، فمعنى « لله دره » كما يقولون أن « الدر » فى الأصل اللبن ، ومعنى لله دره على هذا أن دره أى لبنه الذى غذى به ، منسوب إلى الله تعالى منتم إليه . والشخص الذى هذه حاله يتكفل الله تعالى بأن يمده بلبن غزير نقى فيتغذى غذاء طيبا كافيا ، وينبت نباتا حسنا ، ويكون موفقا فى حياته . فى أعماله وأقواله .. لأن الله تعالى قد تعهده وأولاه عنايته منذ الصغر . ولذلك

يعجب الناس بأعماله وأقواله ويتعجبون من صدورها عنه صحيحه سليمه . .

اذن فما هو السبب الحقيقى لإضافة الدر إلى الأب دون الأم فى مثل هذا التركيب وما صلة ذلك بالأمومة؟ واستطاع الباحثون أن يعللوا ذلك بعدة أسباب :

أولا : أن يكون المراد « بالدر » هنا ماء الرجل ولذلك اختص بالذكر ، لأن المعول فى النتاج على الفحل حتى فى الحيوان . لذلك نسب العرب كثيرا من الحيوان عندهم إلى فحول مشهوره لا إلى أناث . .

ثانيا : أن يكون « الدر » بمعنى اللبن بما سبق ، ولكن الرجل كان عندهم أعلى منزله . وأعز جانبا من المرأة ولذلك رأوا أن نسبة الدر إليه دون المرأة تشريف للابن ورفع لقدره

ثالثا : أن يكون ذكر المرأة وحتى الاشارة إليها بكلمه « أم » معيبا عند العرب فى جاهليتهم ، فلما جاء الاسلام ، وأعتبر المرأة عوره استمرت نظرتهم إلى المرآة على ما كانت عليه فى الجاهلية . ولذلك لم يطرأ تغيير على مثل هذا الأسلوب الذى نحن بصدده . بل عاش فى الإسلام على جاهليته .

أما أسلوب التواضع . فقد نسب الرجل إلى أمه تواضعا . وخير مثال لذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أنه مر على جماعة من الصحابة فقاموا له . فقال عليه الصلاة والسلام :

« لا تفعلوا بى ما تفعل الأعاجم بملوكها . فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة . » فأضاف نفسه عليه الصلاة والسلام إلى أمه لما أراد التواضع ، لأن ضعف الأم ، وما أضافه إليه فى خشونه عيشها وفقرها أقرب إلى التواضع من غيره . بينما نراه عليه الصلاة والسلام حين أراد الفخر فى أحد المواقف . لم ينسب نفسه إلى أمه كما فعل حين أراد التواضع ، بل انتسب إلى رجل هو جده . لأن ما فى الرجال من قوة وعزة وبطش وغير ذلك يناسب الفخر ، ولا يناسبه الضعف كما ناسبه فى التواضع . فقد روى البراء عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال يوم حنين

أنا النبى لا كذب انا ابن عبد المطلب

والجدير بالذكر أننا جميعاً نعرف أن الأم مصدر الحنان والعطف عند جميع الناس وفى كل العصور ، ولذلك وصفت بالرحمة والرقة وضربوا بقلبها المثل فى العطف والشفقة حتى صور الفنانون ملائكة الرحمه على صورتها . أما العرب فى الجاهلية ، فأنهم ينسبون العطف إلى الأب ويصفون العطف بأنه « أبوى » فى حين لم يعثر الباحثون فى اللغة العربية على كلمة « عطف » موصوفة بكلمة « أموى » مع أن الأم كما نعرف مصدر الحب والعطف والحنان ، فما السر فى ذلك .؟

أغلب الظن أن العرب فى الجاهلية كانوا يحتقرون المرأة . فلم يصفوا العطف بأنه أموى . . كما رأى الباحثون الإسلام ، فأعاد للمرأة كرامتها المهدرة ووصف الأم بالضعف ودعانا أن نتقى الله

فيها . حيث يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله فى الضعيفين . . المرأة واليتيم » وقد روى أن رجلا سأل الرسول قائلا : يارسول الله من أحق الناس ببرى ؟

فقال : أمك . . قال ثم من ؟ قال : أمك . . قال : ثم من ؟ قال : أمك . . قال ثم من ؟ قال أبوك .

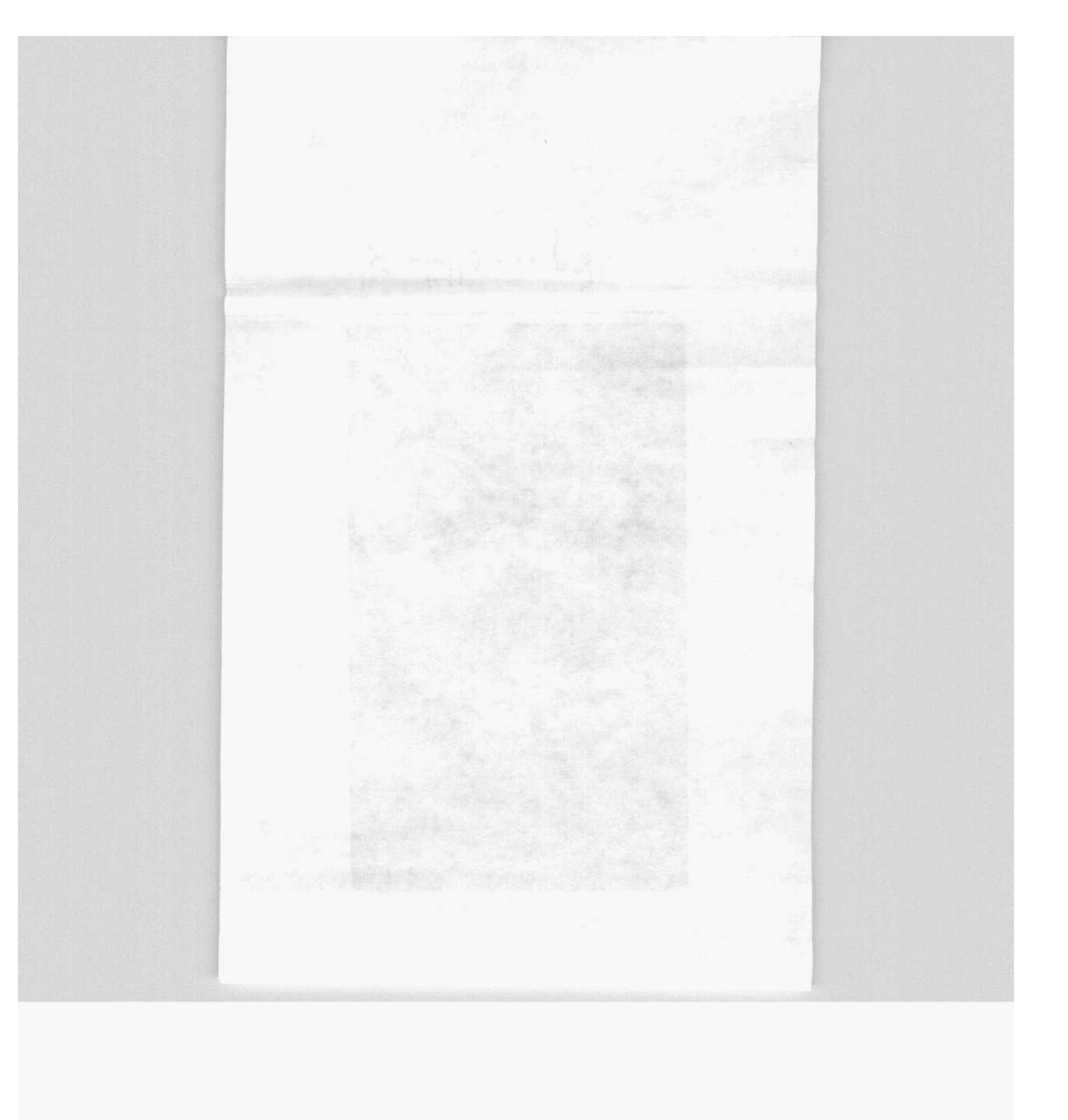
وأخبرنا الرسول . . أن « الجنة تحت أقدام الأمهات » .







الأم ... والشعراء



الأم .. والشعراء ..

إذا حاول الباحث أن يعثر على ما أبتدعه الشعراء العرب منذ مختلف العصور حتى الآن . . بالنسبة للأم . لصادفته مئات العقبات ولاستغرق منه البحث عدة سنوات لأن الرجل العربى لا يذكر أمه كثيراً . بل كان العربى فى الجاهلية نادرا ما يكتب عن الأم فى أشعاره وقصائده أو معلقاته بل لا يستطيع الباحث أن يعثر على صورة شعرية متكاملة عن الأم .. غير أن المتصفح لانتاج الشعراء فى الجاهلية وخاصة المعلقات ، يمكنه أن يلمح صورة رائعة للأمومة ، رسمها الشاعر العربى وصورها أبدع تصوير خلال معلقته الخالدة . واعتقد أن الشاعر حينما وصف ذلك المشهد لم يقصد أن يحلل مشاعر الأمومة وعاطفتها وإنما جاء ذلك المشهد صدفة حين أراد الشاعر العربى لبيد بن أبى ربيعة فى

معلقته أن يعقد مقارنة خاطفة بين ناقته وبقرة وحشية ..

إذ يقول :

اقتلك أم وحشية مسبوعة
خذلت وهادية الصوار قوامها

يتساءل لبيد ، أفتلك الاتان تشبه ناقتى ، أم بقرة وحشية أكل السبع ولدها ، فأصبحت مذعورة ، وتخلفت عن القطيع لتبحث عن ولدها فى الصحارى الواسعة ، وعندئذ يرسم لبيد لوحه خالده لعاطفة الأمومة عند البقرة الوحشية عندما فقدت ولدها الوحيد .. فيصور لنا حال البقرة وقد تخلفت عن القطيع وهى مذعورة تبحث هنا وهناك عن ولدها فى الصحارى الواسعة . وعندئذ يرسم لبيد لوحه خالده لعاطفة الأمومة عندالبقرة الوحشية حينما فقدت ولدها الوحيد

فيصور لنا حال البقرة ، وقد تخلفت عن القطيع وهى مذعورة تبحث هنا وهناك عن ولدها . فلا تقع عيناها عليه ، فتصيح بأعلى صوتها لعله يكون مختبئا خلف النباتات الصحراوية الكثيرة .

وتبحث عنه والذعر والخوف على ولدها يدفعانها إلى الجرى فى مختلف الإتجاهات والمسالك لعلها تعثر عليه . وأثناء بحثها فاجأها المطر الغزير . فانزوت تحت الأشجار والأمطار تغسلها وهى واقفه

ترتجف من شدة البرد فى ليلة كفر النجوم غمامها، وأحست أنها لو ظلت واقفة مكانها هكذا ، لتجمدت أطرافها فكانت تتحرك ببطء تريد أن تبحث عن ولدها المفقود لعله هو الآخر فى مكان قريب منها لا يستطيع الحراك فقد أحست بعاطفتها أن ولدها لن يتحمل شدة البرد ، وقسوة الأمطار التى تهطل مدرارا وهو بعيد عنها ، فكانت تتحرك فى الظلام ، فتضىء وجه الظلام كاللؤلؤه إذا سل خيطها ، سقطت بسرعة ، وكان بريقها خاطفا .

وعندما انحسر الظلام وأسفر الصبح انتزعت قوائمها المتثلجة عن الثرى ، وظلت تبحث فى جدية عن ولدها . وهى تؤكد لنفسها أن ولدها لم يمت ، ولم يأكله السبع . ولكنها بعد طول تجوال وبحث مستمر ، أحست أنها لم ترضع ولدها منذ مدة طويلة ، وأنه لابد فى أشد الحاجة إليها الآن . فازداد جزعها و شتد .

وبينما كانت غارقة فى قلقها ، تسمعت رز الأنيس ، وأزداد صوت الناس وضوحا . فارتاعت . لأن صوت الناس معناه أن الموت أصبح قريبا لأنها لم تسمع ذلك الصوت من قبل إلا وكان الهلاك معه . لأن الناس يحاولون أصطياد أبناء جنسها .

واشتد ارتياعها لأنها خافت على ولدها المختفى أن يقع فريسة سهلة بين أيدى هؤلاء الناس . وحاولت أن تتحرك . ولكنها سمعت أن أصوات الناس تلاحقها من كل صوب . من أمام ومن خلف فشعرت أنها قد وقعت فى كمين . وبالرغم من الخطر الملتف حولها فقد مرقت

كالسهم مخترقه الحصار ، ولم تبال بالموت . ونجحت فى الفرار من الكمين . وعندما يئس الرماة منها ، أرسلوا وراءها كلابهم المدربة فاستطاعت أن تلحق بها وأن تحاصرها . ولم تجد الأم الملهوفة على ولدها المفقود بدًّا من القتال لتنقذ حياتها لأن ولدها المفقود فى حاجه إليها فهجمت على الكلاب بوحشية وصارعتها فقتلت منها من كان قريبا منها ، وهرب الباقى ، ففرحت . وصاحت بنشوه مناديه ولدها المفقود . . أنها قادمة إليه . وظلت تعدو بأقصى قوتها لتبحث عن وليدها فى الصحارى الواسعة .

تلك اللوحة الخالدة عن الأمومة ، ضمنها لبيد هذه الأبيات إذ يقول :

خنساء ضيعت الغرير فلم يرم	عرض الشقائق طوفها وبغامها
صادفن منها غرة فأصبنها	ان المنايا لا تطيش سهامها
باتت وأسبل واكف من ديمة	يروى الخمائل دائما تسجامها
تجتاف أصلا قالصا متنبذا	بعجوب انقاء يميل هيامها
يعلو طريقه متنها متواترا	فى ليلة كفر النجوم غمامها
وتضيىء فى وجه الظلام منيرة	كجمانه البحرى سل نظامها
حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت	بكرت تزل عن الثرى أزلامها
علمت تبلد فى نهاء صعائد	سبعا تؤاما كاملا أيامها
حتى إذا يئست واسحق حالق	لم يبله أرضاعها وفطامها

وتسمعت رز الانيس فراعها عن ظهر غيب والانيس سقامها
فغدت كلا الفرجين تحسب انه مولى المخافة خلفها وأمامها
حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفا دواجن قافلا أعصامها
فلحقن واعتكرت لها مدرية كالسمهرية حدها وتمامها
لتذودهن وايقنت أن لم تذد أن قد أحم على الحتوف حمامها
فتقصدت منها كساب فضرجت بدم وغودر فى المكر سخامها

تلك كانت الصورة الرائعة التى عبرت عن عاطفة الأمومة عند الحيوان ، وقد جاءت كما قلت عفوا داخل معلقة لبيد الطويلة وأعتقد أن هذا دليل قاطع على أن العرب فى الجاهلية لم يهتموا بعواطف الأمومة ولا بالتحدث عن الأم فى أشعارهم . لأن المرأة لم تكن شيئا هاما كما هو معروف. ويخيل إلى أنه بالرغم من تلك القسوة الظاهرة فى مجتمع العرب فى الجاهلية بالنسبة للمرأة إلا أن قيثارة شعراء العرب ، كانت تفضح ما فى أعماقهم من رقة ، وحنان بالنسبة للمرأة . فقصائدهم مليئة بلوعة الحب والغزل . والشوق والهيام . . والسهد ، والغرام ، ومع كل هذا فلم يترنم أحد منهم بأمه فى قصيدة كاملة .

وفى امكاننا أن نمر سريعا بعدد كبير من الشعراء حتى نصل إلى أبى الطيب المتنبى فنجده يذكر الأم ، فى قصيدته التى رثى بها جدته لأمه فهو لم يذكر الأم ، إلا بمناسبة الموت وكذلك الحال فى شوقى كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد . يقول المتنبى بعد أن علم بموت جدته لأمه . . وهى تعتبر بمثابه أمه :

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

احن إلى الكاس التى شربت بها واهوى لمثواهاالتراب وماضما

أتاها كتابى بعد يأس وترحة فماتت سرورا بى . فمت بها هما

حرام على قلبى السرور فإننى أعد الذى ماتت به بعدهاسما

كان المتنبى قد هاجرمنذ زمن طويل ، و يئست جدته منه لطول غيابه ، فكتب إليها كتابه ، فلما وصلها قبلته ، وفرحت به ، واشتدت فرحتها فماتت. فأنشد يقول : إنها كانت مفجوعة ، قتلها شوقها إليه ، ولم يلحقها عيب ، لأنها اشتاقت إلى ولدها . ولم تشتق حبيبا ينالها بشوقه عيب ، وإنما اشتاقت من تثاب على شوقه ، وليس الأجر إلا بالصبر عليه . وهو يحن إلى الموت الذى شربت كأسه . ولا يحب البقاء بعدها . ويحب من أجل مقامها التراب وماضمه ، ومن كثرة حزنه بها ، فكأنه مات عليها غما ، وماتت هى من سرورها بحياته بعد اياسها منه . ولذلك فالسرور حرام عليه . . لأن المتنبى بعد موتها بالسرور يعده سما فيتباعدعنه و يحرمه على نفسه فكان يستعظم فراقها قبل موتها . فصارت حادثة الفراق صغيرة عند موتها وكانت قبله عظيمه.وصار موتها أعظم من فراقها ، وهو يقول لها . . إذا لم يكن والدك عظيم القدر فولادتك اياى بمنزلة أب عظيم تنتسبين إليه . إذا قيل لك : أنت أم أبى الطيب وهذا نسب عظيم لو لم يكن لك نسب ويعبر المتنبى عن هذا فى قوله :

وكنت قبيل الموت أستعظم النوى

فقد صارت الصغرى التى كانت العظمى

فوا أسفا الا أكب مقبــلا

لرأسك والصدر اللذى ملئا حزما

وألا فى ، روحك الطيب الذى .

كأن ذكى المسك كان له جسما

ولو لم تكونى بنت أكرم والد

لكان أباك الضخم كونك لى أما

وعلى هذا النمط ، كتب أحمد شوقى قصيدة فى رثاء جدته كما فعل المتنبى ، وقصيدته فى رثاء أمه . فكيف صور الشاعر فى العصر الحديث . . الأم ؟ . . فديوان شوقى الكبير ، لم تحظ الأم فيه إلا بقصيدة واحدة ومتى ؟ بعد مماتها . . حتى القصيدة لم ينظمها كلها عن أمه . وإنما غلف عاطفته بمناجاته للوطن فجاءت القصيدة ضعيفة التعبير . وغير صادقه الإحساس فى قصيدته التى رثى فيها جدته يفتتحها بالأمثال قائلا :

خلقنا للحياة وللممات	ومن هذين كل الحادثات
ومن يولد يعش ويمت كأنلم	يمر خياله بالكائنات

ويصف جدته هكذا :

بررت المؤمنات فقال كل	لعلك أنت أم المؤمنات
وكانت فى الفضائل باقيات	وأنت اليوم كل الباقيات

ثم يقول :

ولو لم تظهرى فى العرب إلا بأحمد كنت خير الوالدات

إذا لم يكن لك نسب فى العرب إلا ولادتك لى لكنت بهذا خير الأمهات العرب . ونعد وضع هذا البيت نفسه تواما لبيت المتنبى الذى يخاطب به جدته إذ يقول :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

وفى القصيدة التى يبكى فيها والدته. والتى نظمها وهو فى منفاه بالأندلس عام ١٩١٨ ، كان يعلل النفس بالعوده إلى الوطن ولقاء أهله . وفى مقدمتهم والدته الحبيبه . ولكنه ماكاد يتحدث إلى نفسه بهذا الأمل المرموق حتى وافاه البرق بنعيها . فأثرا هذا المصاب فى نفسه تأثير بالغا ولم تمض ساعات حتى كتب هذه المرثية وقد قيل أنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إليها بعد كتابتها . فبقيت مستورة ضمن أوراقه الخاصة حتى نشرت فى الصحف غداة وفاته . فيقول فيها :

إلى الله أشكو من عوادى النوى سهما
أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى
لئن فات ما أملته من مواكب
فدونك هذا الحشد والموكب الضخما

رثيت به ذات التقى ونظمته

لعنصره الأزكى وجوهره الاسمى

نمتك مناجيب العلا ونميتها

فلم تلحقى بنتا ولم تسبقى أما

وإذا تصفحنا ديوان الشاعر العملاق ، عبد الرحمن شكرى الذى يضم ما يقرب من خمسمائة قصيدة ، وجدنا فيه قصيدتين فقط عن الأم . القصيدة الأولى بعنوان « أم أسبرطية » صور فيها حال أم قتلت ابنها لأنه هرب أثناء الحرب أمام الأعداء ولو كانت تعلم هذه الأم أن ابنها سيكون جبانا رعديدا هكذا . لألقت به من فوق الجبل كما هى عادة أهل أسبرطه ، إذ كانوا يرمون الأطفال الضعاف على جانب جبل ، ويتركونهم يموتون ، دون أن يذرفوا عليهم الدموع .

فيصور تلك اللوحة من لوحات الأمومة فى هذه الأبيات الرائعة :

فر يبغى من الحمام مجيرا	فأعان الردى عليه المجير
بادرته بحتفه أمه . . .	وهو على عاره إليها حبيب
ولو أن النذير أوحى إليها	وهو فى المهد أنه سيخور
لرمته بجانب الجبل الشا	مخ لم تنتزع عليه القروب
ان اسبرطه التى قمع الطا	مع فيها خميسها المنصور
جعلت ذلك الفرار حراما	والذى يركب الحرام مريب

أيها الخائن الجبان خشيت الـ ـموت والموت حادث مقدور
ان أما تعزى لها قتلت فى قتلك ، العار لم يصبها معيب
شرفت ثم أجرمت العا ر ولكن لها الجوى الزفير

حتى العقاد ، لم ينظم قصيده عصماء عن أمه إلا بعد أن طواها الموت تحت ردائه الكالح . . عندئذ فقط صدرت الأنغام الحزينه من قيثارة العقاد ، تهز القلوب . فقد كانت صادقة الأحساس منتزعة من أعماق وجدانه المجروح . والقصيدة ليست فى حاجه إلى شرح أو ايضاح ، فموسيقاها تسرى فى أنحاء الجسم ، فتذيبه الما وحزنا على الأم التى فقدها ، والتى من كان من أجلها يخاف الخطوب ، فلما اختطفها الموت ، أصبح الخوف يعد سلاما ، وأصبح الكون من بعدها ظلاما ، شديد الحلكة ، وإذا به يقول فى قصيدته الخالدة :

لقد كذب الناعى وأنعم بكذبه فلا صدق الناعون يوما ولا همو
فزعت لخطب الموت والموت واحد فكيف أحتمالى فيك مرتين يا أم

سرى نبأ لا يهاب الظلاما ولا يتقى يقظة أو مناما
يقين وما خلته باليقيـ ـن ولا اعتصم القلب منه اعتصاما
فراقك يا أم لم أحتسب له بغتة أو نذيرا ترامى
وما روضتنى له الحادثات وأن رضيت منها الخطوب الجساما
كانى ذكرتك لى مولد فلم أذكر لك يوما حماما
حسبت الأمومة أخت الدوام وخادعت ظنى عليها دواما

واقحمنى فيك خطب النعى وفى غيره ما شكوت الفحاما
لئن عظم الموت يا أمنا لقد هان يوم سكنت الرغاما
وما أرخص النور لما غلا على مقلة لا تطيق السواما
خلا الكون منك فماذا أرى فى الكون بعدك إلا ظلاما
فيا هولها من قفار تركت ويا شد ما قد عرت الرجاما
تلاقى ذوى ببطن الثرى فأنعم بحيث اقاموا مقاما
لأجلك كنت أخاف الخطوب فما الخوف بعدك إلا الاسلاما

وهناك قصيدة نظمها الشاعر القروى رشيد سليم خورى ، يصور فيها احساس الإبن بحنان أمه ، ويحكى قصة نظمها فيقول :

«نظمت هذه القصيدة ، ولم يحل الحول على وصول الوالدة إلى استطنبول بعد أحدعشر عاما من اغترابى عن لبنان . القيت يدى على كتفيها ذات مساء ، وأدمت النظر إلى وجهها الكريم . وقد غمرتنى ابتسامتها الفائقة العذوبة بموجه من الحنان الذى لا يوصف فتعلقت روحى بأسباب ذلك الشعاع المنبعث من عينيها الحلوتين نافذه وراءهما إلى عالم قدسى عجيب » .

قلت :

بربك يا أمى لا تحولى بصرك عنى . . لكانى رؤيا شعرية غريبة لاعهد لى بمثلها قط .

قالت :

اسم الله حولك يا بنى : .اسمعوا يا أولاد . . لا تعيطوا . عمكم ينظم . . روحوا من هنا . .

وابثت فى ذهولى وموكب الالهام يدنومنى وئيدا . أوادنو منه لا أدرى ، حتى شرعت أتبين معالمه وأستجلى شخوصه ، فصمت وقد ملكتنى نشوة الفن وبدنى يقشعر ، والعرق يتصبب من جبينى » .

« أماه . . بشراك لقد جئت بما لم يجىء بمثله شاعر لأم . فأعادت الدعاء » .

اسم الله حولك ياولدى . . هذا أحسن شعر عملته فى حياتك أنظمه حالا قبل أن تنساه .

فقبلت يدها ، ودخلت غرفتى ، وأغلقت بابها ، ولم آو إلى فراشى عند منتصف الليل ، حتى كانت قصيدة « حضن الأم »

وفى القصيدة بعض المغالاة فى الوصف ، وبالرغم من ذلك ففيها إحساس صادق عميق . . يقول الشاعر القروى :

اتذكر كيف كان إله موسى إلها قاسيا يلتذ بالدم ؟

إذا فاليك غدا حنونا علينا أن تألمنا تألم

روى الراوون أن عثر بمصر على درج غريب الخط مبهم

فحاول فهمه العلماء لكن بدا لجماعة العلماء طلسم

إلى أن حله الشعراء شعرا ... ومن بالشعر كالشعراء يفهم؟
وذلك أنه من قبل عيسى ... توفى شاعر فى الشرق ملهم
أضاع العمر فى طلب المعاصى ... يحلل ما كتاب الله حرم
فكاد إلى اللظى يلقى جزاء ... لما من سىء الأعمال قدم
ولكن بره الأبوين غطى ... مساوئه فخلص من جهنم
وجازاه الاله جزاء بمن ... تقى حسبما فى الكتب علم
فنام بحضن إبراهيم لكن ... قبيل الفجر شاعرنا تبرم
وقام لربه يشكو ويبكى ... بكاء صير الفردوس مأتم
فهدأ روعه وحنا عليه ... وطيب قلبه بحنانه الجسم
ووسده يديه وركبتيه ... ومال عليه بالتقبيل والضم
وقال لعبده داود : رنم ... لهذا البلبل الباكى فرنم
فنام بحضنه الأبوى حينا ... وعاد يساقط العبرات مندم
إلى أن ضج أهل الخلد غيظا ... وصاح الله من غضب : إلى كم
أطيق تذمرا من عبد سوء ... يجرع كوثرا فيقول علقم
تظلم فى الثرى من غير ظلم ... وحتى فى النعيم معى تظلم
أرى الشعراء جازوا الحد أنى ... أكاد لخلقى الشعراء أندم
علام بكاك يا هذا وماذا ... دهاك فلاتنى تشكو ؟ تكلم
أصفحى عنك قد ابكاك؟أم ما ... جزيت به من الأحسان؟أم أم ؟

فصاح : العفو يا مولاى من لى — سواك ومن سوى الرحمن يرحم؟
اتيتك راجيا نقلى لحضن — أحب إلى من نفسى وأكرم
لحضن طالما قد نمت فيه — قرير العين بين الضم والشم
أما ألقيت رأسك فوق صدر — حنون خافق بمحبة الأم ؟
فدعنى من نعيم الخلد إلى — نعيمى بين ذاك الصدر والفم
تربتنى كعادتها برفق — وتنشد : نم حبيبى بالهنا نم

وقد وصف معروف الرصافى فى لوحة جميلة حنان الأمها وأحضانهن المليبة بالحب والعطف ، يقول :

ولم أر للخلائق من محل — يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت — بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسنا — بأخلاق النساء الوالدات
وليس رحيب عليه المزايا — كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت فى جنان — كمثل النبت ينبت فى الفلاة
فيا صدر الفتاة رحبت صدرا — فأنت مقر أسمى العاطفات
تراك إذا ضممت الطفل لوحا — يفوق جميع إلواح الحياة
إذا أستند الوليد عليك لاحت — تصاوير الحنان بمصورات
لا خلاق الصبى بك انعكاس — كما انعكس الخيال على المرأة
وما ضربات قلبك غير درس — لتلقين الخصال الفاضلات

فأول درس تهذيب السجايا يكون عليك يا صدر الفتاة
وهل يرجى لأطفال كمال إذا ارتضوا ثدى الناقصات

وعندما تحدد يوم ٢١ مارس من كل عام يوما للاحتفال بالأم والأسرة فى بلادنا بالأم والأسرة فى بلادنا ، وضعت الأناشيد والأغنيات التى تترنم بحنان الأم وحبها ، ومن تلك الأناشيد ، يقول على أحمد باكثير فى نشيده :

عيـــدك يا أمى أبهج أعيـــادى
لـــولاك يا أمى ما كان ميلادى
قلبك يرعـــانى يا بهجة القلب
وليس ينسانى فى البعد والقرب
فضلك يا أمى ما فوقه فضـــل
فكل خير لى أنت له أصل
عيدك يا أملك
كيف أوفيك شيئا من الدين ؟
أو كيف أجزيك يا قرة العين ؟

وبدأ الشعراء يتنبهون من غفلتهم عندما رأوا جميع الأبناء فى بلادنا يهرعون ويتسابقون فى تقديم الهدايا إلى أمهاتهم . فأرتفعت أنغام قيثارة كل شاعر ، تسبح بحنان الأم وحبها ، وأصدرت الشاعرة روحية القلينى ديوانها « أنغام حالمة » فصدرته بقصيدة

جميلة أسمها « الأم » مليئة بشتى الأحساسات والمشاعر الرقيقة . خاصة أنها صادرة من الإبنة إلى أمها ، بعد أن ذاقت طعم الأمومة تقول :

من وحى قلبى من تألق ذاتى ... من نبع وجدانى سرت دعواتى
ووقفت فى المحراب خاشعة وفى ... نجوى الدعاء همست فى السجدات
يارب صن أمى وسر سعادتى ... يارب واحفظها بحق صلاتى
من ذا الذى أدعوه غير حافظا ... أمى الحبيبة أجمل المنحات

وتصف الشاعرة لحظة مرضها ، وكيف تسهر عليها أمها وتكاد تفديها بروحها . وهى ان غابت عن عينيها أو تأخرت عن موعدها ينتاب الأم القلق والاضطراب ، فتظل فى لهف هنا وهناك من كل نافذة لعلها ترى ابنتها . وتظل تحسب الدقيقة إلى أن تراها قادمة فى الطريق ثم تنهال عليها بقبلاتها السابحه فى دموعها . وإذا شكت الابنه ضيقها بالحياة ، تثبت الإيمان فى قلبها ، وتنتزع اليأس من قلب ابنتها . ، لتجعلها تثق بالله مدبر الكون الذى يرعى الخلائق ويمنح البركات وتقول الشاعرة :

يا من وهبت لنا الحياة أمومة ... ممزوجة بالعطف والرحمات
وبحكم القرآن توصى دائما ... بالأم . . أفديها وأبذل ذاتى
وأصونها فى مقلتى من الردى ... وأطيعها فى الجهر والخطرات
لو لم تكن ربى وسر هدايتى ... لعبدت أمى فهى نور حياتى



حكاية ملحمة أم



جميل جدا أن يكون لنا هذا اليوم ، لننسحب من دوامة مشاغلنا . ونتذكر أمهاتنا ، ونقول كلمة وفاء .. وحب إلى تلك القلوب الدافئة التى تنبض بنور السعادة وكأن تلك القلوب قناديل تضىء لنا طريق الحياة الملىء بالأشواك والعقبات . جميل جدا أن يكون لنا هذا اليوم يتذكره كافة الناس . لكن الأدباء والفنانين الذين تناسوا ذلك القلب ليسوا فى حاجة إلى مثل هذا اليوم ، لأنهم لن يحسوا بهذا الحب . وهناك بعض شعراء قد عبروا عن هذا الحب ، فيقول الشاعر ..

ولو خيرونى بين أم وجنة
تفيض بسحر الحور لاخترت لى أما

ومن الصعوبة أن يعثر الباحث على إنتاج فنى كبير عن الأم أبدعه الأدباء العرب ، مثلما نجد من الأعمال الروائية الغربية أو المسرحية مثل الأم لجوركى والأم ، لبيرل بك ، « الأم » للكاتب الهندى

عزرا ، الأم شجاعة لبريشت ، « الأم » للفنان التشيكوسلوفاكى كارل تشابك و « والدة » لفرانسوا مورياك ؛ وغيرهم بينما تفتقر مكتبتنا العربية إلى انتاج أدبى مشرف .

وأخيرا عثرت على أول ملحمة فى الأدب العربى عن الأم تضم ما يقرب من ألف بيت ، تصور مشاعر الحب والأمومة فى أسلوب قصصى مبدع . وهذه الملحمة الشعرية نظمها الشاعر محمد العدنانى ، فى شكل موشح حتى لا يمل القارىء من تكرار حرف روى واحد . وحاول جاهدا الاتيان بألفاظ مألوفة حتى تكون الملحمة قريبة من قلب القارىء ، مستخدما أيضا رقة العبارة وسلاستها . وبعض المعانى المبتكرة . والصور والاخيلة الجديده

ويروى الشاعر حكاية العذراء الجميلة « سلمى » ذات الجمال الفتان الذى سحر قلوب الشبان والرجال على السواء ، كانت بيضاء الوجه ، لها شعر كستنائى متموج الخصلات تنسدل على جبينها خصلة شعر وتزيدها فتنة وجاذبية . وعيناها العسليتان الناعستان أحيانا تكشفان أسرار قلبها الحنون ، الملىء بالحب الصادق والهوى العطشان ، العطشان إلى قلب آخر حنون دافىء ينبض هو الآخر بالحب . والوفاء . ووجدت سلمى هذا القلب قلب « طريق للذى أضاء لها الدنيا . وأحبت فيه . . الحب كله . . وكان ملاك أحلامها ، وروح قلبها وأصبحت اليفته . وكان الحب هو الألفة الوحيدة التى ربطتها ، بكل شوق الدنيا وحبها ، وجدت نفسها

ترتمي فى أحضانه ، كأنما تختبيء من الزمان الغادر ، ورأت أن عمرها كله ، ليس الا الحب فقط ، وأحست أنها خلقت من جديد

لم يشاهديم الهوى ربانا كطريف ، ولا كسلمى كعابا
اينع الحب فى رياض الغرام
فزها القصر بالوليد عصام
حلم الحسن ، والعلاوالسلام

ولكن فرحتها لم تدم ، فقد اختطف القدر شباب « طريف » وباتت الأم وحدها فى كفاح مع دهرمدجج بالسلاح ، تحاول أن تربى وليدهاعصام .

حملت عبء والد ، بعد أم
وحدها ، واغتذت بهم وغم
وتحلت بالعزم فى عرض يم

وزاد ثوب الحداد سلمى جمالا ، وكساها الحزن الدفين العميق جلالا وروعه ، فتهافت عليها الشبان والرجال مرة أخرى . وتقدم إليها طبيب مشهور قائلا لها ، أنه يضع روحه بين يديها ، وقلبه أيضا ليكون لها روحا وفيا ، وأبا لعصام ، ولكنهاردته قائلة :

فأجابته وهى كالرعد غضبى :
لن يرى قلب غير زوجى ربا
أن يغب جسمه ، روحى تأبى

وقاومت « سلمى » الأغراء ، وفازت فى امتحان الوفاء ونجت من مزالق الإغراء وجماح الغريزة الحمراء ، وصمدت وحدها تجالد الدهر المجنون . ووقفت نفسها على ابنها الوحيد الذى لفه اليتم بالهموم السود ، وسقاه الزمان من كئوس الجحود الكثير . ولكن « سلمى » اظلت وحيدها بقلبها الحنون ، وسقته الحنان ليل نهار ناسية فتونها . وجمالها ، وصحتها ، حتى أصبح طبيبا ناجحا ، طار صيته فى كل مكان وأمسى منجى الأرواح . ولكن الزمان ، أفاق من غفوته وانبرى يطلق المصائب ، فأصاب ابنها (عصام) بداء عضال احتار فى علاجه الأطباء ، وبركت بالقرب من سريره تتلوى ، تحاول أن تفتديه بروحها وقلبها ، واستنجدت بالرقى ، والتعاويذ وعبثا تحاول أن تنقذ وحيدها ، إلى أن التقت بعجوز ، عريقه فى الذكاء ، سلخت عمرها مع الحكماء ، فقالت لها أن تذهب إلى ساقى الحمام ، عزرائيل ، تستعطفه أن يترك ابنها .

ثم راحت تبغى ملاك المنون

وهى مما عرا ابنها فى جنون

وفى الطريق ، قرب الغدير ، التقت « سلمى » بغادة ترتدى السوداء ، فسألتها عن مكان عزرائيل ، فقد يكون لديه الشفاء لوالدها . فطلبت منها الغادة أن تغنى لها وتنشد كل الأناشيد التى كانت تقولها لابنها قبل الفطام . وعندئذ لم يخيب الليل لسلمى رجاء ، فأرشدها إلى الطريق ، إلى أن ترى الأدغال ، وهناك ستجد وردة

تشكى الملل ، والوحدة فتسألها عن المكان المطلوب . وطارت الأم وكلها رجاء إلى مكان الوردة . فرآتها مغمورة بالثلوج . وسألتها الأم « سلمى »عن مكان ساقى المنون .

ولكن الوردة قالت « للأم » انها لا تستطيع أن تخبرها بالمكان والثلج يغطيها ولابد من أن تستعيد دفئها ، وحرارتها ، إلا إذا غرست قلبها فى الشوك ، لتمتص دمها وتستعيد حياتها ، وفعلت « الأم سلمى ما طلبت الوردة ، حتى زها فوق خدها الأرجوانى لون ذلك الدم الزكى القانى .

ورنت لحظة لفخر الأمومة
ثم قالت برقة ، ونعومة :
سائلى البحر ، أين عزريل تاها
تجدى الموج للرعوم أجابا .

وذهبت « الأم » إلى البحر ، ثم صعدت الجبال ، وفقدت أسنانها وهى فى الطريق وكذلك فقدت نور الحياة وأخيرا .. وصلت إلى مكان ساقى المنون ، الذى خرج إليها :

قال : أهلا بربة التضحيات
وشذا النيل فى رياض الحياة
وغرام الأمجاد ، والمكرمات
ما عسى تبتغين ؟
قالت :أغثنى
أوشك الداء أن يطوح بابنى

فازح عن جنانى النكبات

حسبه ما جرى له وانتابا

وقال لها عزرائيل . . أنه لا يستطيع أن يقف أمام تضحيات الأم . . وأنها لم تجد أية عقبة إلا وتخطتها ، وركبت الخطوب والآلام وشربت الآهات والأسقام بالمستحيل لم يعد له وجود أمام إصرار قلبها المحب فأبشرى سيشفى عصام . . وتعود إليه صحته . وفرحت الأم . وراحت تدور حول نفسها فرحة . ولكن ساقى الردى طلب منها أن تدفع الثمن . . لابد أن تجود . . تجود بحياتها .. ولم تتردد الأم ، ولكنها طلبت أن تضم عصاما إلى صدرها وتقبله ، قبل أن يضمها القبر . وتحققت أمنيتها ويصور محمد العدنانى ذلك الموقف فى روعة وبساطة يقول فى نهاية ملحمته الفريدة :

ورمى نفسه عليها ، فضمت

فلذة الكبد ، ثم باست ، وشمت

وأشعت بشاشة لا تبارى

وهوى نجمها الحبيب وغابا

والأم . . هى الأم . . فى كل مكان وزمان . رمز للسخاء والعطاء والحب ، والتضحية ولا يمكن أن نوفيها حقها مهما فعلنا وهى فى حاجة إلى الكلمة الحلوة . . كلمة الوفاء وليس أجدر بالتعبير عن هذا الحب سوى الأدباء ، ولكن أدباءنا ما زالوا عاجزين عن ذلك التعبير عن هذا الحب العظيم . . إلى متى ؟



أسم الله عليك يابني



اسم الله عليك يابنى

كثير من كتاب الزجل كتبوا عن الأم ، ولكن من النادر أن تعثر على كاتب منهم ، رسم صورة زجلية ، تقترب إلى حد ما من فن القصة وحبكتها ، وقد تعرضت هنا لنصين على سبيل المثال لا الحصر فى النص الاول تعرضت للذى كتبه كامل حسنى . فقد اعتمد على أسطورة خرافية ، تحكى قصة « قلب ام » ونظمها فى رباعيات بدأها :

من راوى مجهول . . من فطرة الريف زمان

حدوته بتقول . . كان فيه زمان ياما كان

فلاح من الريف مالوش فى دنيته غير ام

وقلب ابيض .. وفاس حامى .. وكام فدان

ثم انتقل الكاتب إلى وصف حال هذا الفلاح وامه. كان يعيش على الفطرة . وفأسه هى صديقه الوحيد ، وعالمه لايتعدى حدود حقله ، والشمس ترافقه اثناء ذهابه إلى غيطه ، والظلام يلفه بردائه

ليعود به إلى بيته . وفى ظهر كل يوم تسعى إليه أمه وفوق رأسها الغذاء مصرور فى منديله وعندما تهل على الغيط .كان ينسى تعب النهار كله ، وذات يوم قالت الام لابنها عويس :

عدانى ياابنى الزمان . . وكبرت ونهديت
ولاأجول بعديوم والدك . . انا اتهنيت
الا اما أشوفك ياولدى بالجواز مبسوط
واشوف عيالك كده « ماليين عليه البيت »

وبكت الام عندما طاف بخيالها صورة طفولة ابنها ، ولحظة موت زوجها ، وهو يقول لها كيف سيكبر عويس ، ومن الذى سيرعاه . . ومات الزوج وظلت الام ساهرة على ابنها طوال الايام والليالى حتى كبر ، واشتد عوده ، وظل يعمل بفأسه فى الحقل كما كان يفعل ابوه . ومضى الزمن واحست الام بالشيخوخة تدب فى أوصالها فصارحت ابنها برغبتها فى البحث له عن عروس لترى أولاده وهم يلعبون من حولها . . ولكن الابن قال لها :

مسح عويس فوق دماغ أمه بكف حنون
وقال يا امى الجواز ازاى ده بس يكون
وحياة تراب ارضى . . ما وعى اندفن فى حماه
انا لو اطاوعك فى دى الشورة اكون مجنون

* * *

ان كان عليه شيلى انقى الفكر من يمى

مين بس غيرك يساعدنى على همى

ويشد يدى فى ليل حاير بجلبى فيه

يانور عنيه . . يادجه جلبى . . ياامى

وظل عويس يقنع أمه بأنه فى غاية السعادة معها ، ولا داعى للزواج . ان انفاسها الهادئة تدفىء البيت ، وقال لها :

ولو أكون يامه باتجلب فى جمر النار

النار تدوب من حنان جلبك وتطفيها

وان الله قد ساعده من اجلها ، ووسع فى رزقه حتى اللقمة لو كانت « مش » اصبحت فى يدها كالشهد ، ثم استعطفها قائلا :

وحياة حنانك على اللى بيه اتربيت

وعشت فيه الزمان ده كلته و بجيت

راجل . . ما تدخل فى بيتك واحدة وأنت فيه

واتشار كك الحلب . . و تشاركك كمان البيت

ولكن الأم لم تستمع إلى كلام ابنها ، وقالت له انه ينبغى أن يتزوج حتى يساعده أولاده فى الحقل واستطاعت أن تزوجه ، ودارت الأيام ، وأصبح الابن متيما بزوجته التى «أكلت بعقله حلاوة»

أكلت بعقله حلاوه البنت فى شهرين
و انطس فى قلبه مش عارف بحب مين
وحط خضره فى قلبه . . وشال حنان أمه
وسابها مستسلمه ، ساكنه لدمع العين
الأم أول ما قاست . . قاست الإهمال
وخضرة فى كل يوم تفتل لها فى حبال
وتكيد لها وهيه ساكته . . برصه تدعى لها
وتقول يا خضرة . . إنتى برضه بنتى . . بنت حلال

• • •

التانية شافت سكوت الأم ع المقدور
ودماغها م الغيظ بقت فى كل ناحية تدور
نامت على الفرش وادعت المرض والسقم
شهور تجرى فى عياها من وراها شهور

وأصبح عويس فى حيرة ، فقد اشترى الأدوية ، واستدان . ومازالت خضرة فى سريرها مريضة واحتار الأطباء فى تشخيص الداء . ولكنها أخيرا قالت له . . ان الدواء لا يمكن أن يحصل عليه وأن شيطان الزار وشوشها . وأفضى إليها بالدواء المطلوب . وصرخ عويس فيها أن تتكلم .

صرخ عويس من نافوخه قال لها جوليه
لو الجمر م السما أطلع وأنزل بيه
لو جو هرة فى جلب سمكة فى بحرنا أغطس
وأعيش حياتى مع سمكة أدور فيه
قالت له . . يا عويس صحيح لو صحتى تهملك
أنا حاجول لك . . ولو كان جولى حيهملك
جالولى لا أصحى ولا أخطى برجلى الأرض .
إلا إذا جبت لى من بكره جلب أملك

وكان الكاتب يستطيع أن يصور بدقة الصراع النفسى داخل نفسية عويس . وأن يبدع فى هذا التحليل ولكنه انتقل بسرعة إلى المشهد الدرامى . حين ذهب عويس بأمه إلى الترعة وأغرقها : وانتزع قلبها ليعود به إلى زوجته خضرة . فالكاتب يقول :

ويدخل الليل وصاحبنا وأمه وراه
على الطريق اللى ترعتهم بتمشى معاه
نفس الطريق اللى ياما بالغدا جت فيه
مشيت لرحلة أخيرة تنتهى لله
وراحت الأم فى الترعة مع التيار
وسط السكون وأنعكاس البدر ع الأشجار

ولف صاحبنا قلب أمه بمنديله
وأندار حياخد طريقه تانى للدار

وكان الكاتب موفقا حين رسم اللحظة التى كان عويس يسير فيها ، وقلب أمه فى يده . كان جسمه يرتعش واحس أن هناك من يناديه . فالتفت حواليه فلم يجد إلا القمر شاهدا على إثمه . والريح كان يلطم خدوده أسفا على ما حدث ، والطيور كانت من شدة حزنها تفارق الأغصان فى بهمة الليل وتردد صدى صوت يناديه عويس . . والتفت هنا وهناك . . ولم ير شيئا فارتعب وظل يجرى . . ويجرى . . إلى أن وقع على التراب الذى كان يحلف به أمام أمه . . عندما قال لها « وحياة تراب أرضى ما أوعى أندفن فى حياه » وعندئذ صور الكاتب تلك اللحظة كما صورتها الأسطورة الخرافية . . التى كانت ترمز إلى أن قلب الأم . . هو من نور الله . . هو منبع الحب والحنان والتضحية .

هو انكفى من هنا والليل سكن حواليه
ورن صوت أمه م القلب اللى فى أيديه
اسم الله يا ابنى . . اسم الله يا ابنى عليك
اسم الله يا ابنى عليك . . وأغمى عليه

والقصة الزجلية الأخرى بعنوان « أم أمين » كتبها محمد البشبيشى وهى قصة أم مات زوجها وترك لها ابنا صغيرا هو أمين

وتقدم لها كثير من العرسان ، لكنها رفضت أن تتزوج إلا بعد أن تربى ابنها . واستطاعت أن تعمل خياطة حتى كبر ابنها ووجد عملا يستطيع به أن يتكفل أمه . ولكنه تعلق بفتاة حلوه . . هى (ورده) واكتشف هذا الحب « المعلم إسماعيل » فجاء ذات يوم وقال لامين :

إسماعيل :

مادام الحالة بقت معدن — أمك محتاجه مراعية
لازم تتجوز بقى أحسن — أنا شفتلك أنت وهية
امين (فى تعجب) — أنا ومين يا شيخ إسماعيل
إسماعيل — الله جرى ايه يا أمين
اسمع يا ابنى الحب مقدر — ولا فيش قلب يفوت م الحب
كنت زمان قدك وصغير — وأعرف كل شعور الشب.
بنت لطيفة وبنت حلال — وأبوها عبد الله البقال
قالو لى عنها أسمها ورده
أمين : — وعرفت أمى
إسماعيل : — بس النهارده
عندكو شقة كبيرة وواسعة — تيجى البنت تريح أمك
فكرة بأقولها وللخير أسعى — فرح قلبك وأكرم أمك

أمين : رايح أقول للحاجه عليها

إسماعيل : روح الله يبارك لك فيها

وفى هذا الحوار الزجلى ، يستمر الكاتب فى عرض تفاصيل قصته ، فتذهب أم أمين إلى الست زهرة ، لتخطب وردة لابنها ، فقالت لها الست زهرة

زهرة : وابنك اسم الله

أم أمين أمين سايغ

فى الصاغة له سمعة كبيرة من يومه اسم الله عليه طالع

زهرة : البركة فيكى يا أميرة

أم أمين :

مات أبوه يا ختى فاته فى اللفة لحل يتربى عشت هجالة

ربنا سعده حبه فى حبه قام طلع راجل ابن رجالة

خدنى عمنول ياختى حججنى والسنه ديه ابتدأ يبنى

قلت يجوز دورت أخطب له أملى ومنايا بنسمع طلبه

زهرة : هوه شاف بنتى ؟

أم أمين

وانشبك قلبه بيها يا ضنايا قلت أخطبها تبقى ويايا

الكبر جانا يبقى ناقصنا حد يرعانا حد يكرمنا

زهرة :

بس دى لسه فى الخمستاشر   اصبروا علينا لحد ستاشر

أم أمين

تفروا فاتحتهم لحل راحتهم   والسنة الجاية تبقى داخلتهم

مش كده برضه

زهرة : أيوه يا حاجه

ونجحت أم أمين فى أن تزوج ابنها من وردة. ولكن أمها زهرة لم يعجبها أن تظل ابنتها تعيش فى سعادة مع « أم أمين » فقالت لابنتها ذات يوم :

زهرة

دلوقت يا ورده خلاص خلفتى   ولسه قاعده برضه ويا حماتك

وردة   وأعمل إيه ؟

لابد تحكمى أنت   بيدك يا بنتى تنفذى طلباتك

السحر ما نفعش مع الملعونه   حتى جلد الغزال مانفعش

لازم يكون لك بيت لوحدك   ان كانش يوافق انتى لازم تمشى

واستمعت ورده إلى كلام أمها ، وأشعلت النار بينها وبين حماتها التى ظلت صابرة ، وأحس أمين بأن السعادة بدأت تفر من بيته . وتاه بين أمه وزوجته . فلم يستطع أن ينتبه إلى عمله ، وعرف عم اسماعيل قصة الشجار فسأله أمين قائلا

إسماعيل : خير انشاللا ؟

أمين :

سى عبد الله عايز بنته تسكن

قالوا بصراحة مش مرتاحه مع أمى

إسماعيل وجات لهم الجرأة

أمين

والأدهى من ده كانوا جايين ضفدعه وعليها كانوا كاتبين

فى الشقة لقيتها تنط تنط ولقيت أحجبه وكلام شياطين

إسماعيل أحجبه ؟

أمين

ومكانش هم كتير سنتين مش عايش فى حياتى

إسماعيل لكن عبد الله شايف أمين

أمين ده كله من الست حماتى

إسماعيل ونهايته ؟

أمين

نهايته تهد الحيل أخدوا مراتى مع ابنى بلبل

إسماعيل : وأمك ؟

أمين :

أمى نايمـــه مريضـــه ومعاها جارتنا أم خليل
جبت الدكتور قالى ألحقها دى مريضه يا ابنى بمرض القلب
وأوعلك تجهدها وتزعجها وأعمل آخر ما وصل له الطب

إسماعيل :

طيب روح أنت شوف شغلك ربنا حيحلها واقابلك

وذهب عم إسماعيل إلى الست زهرة ، ليصلح ما حدث ، ولكن « زهرة » أصرت على أن تسكن ابنتها بعيدا عن أم أمين . وحاول إسماعيل أن يأخذ الطفل الصغير من أمه ورده .. فصرخت قائله :

ورده : (تولول) يانا الحقونى يانى

زهرة :

هيه الحكاية خطف ولاسريقه حظ الولد فى سريره ياللا اتوكل

اسماعيل

والله انتى يازهرة عملتى طريقة وخلقتى فى بيت السعادة مشكلة
ادى الولد خليه يعيش مع أمه وخلى جوز بنتك يعيش مع أمه
ليه تخربى بيت البنية بايدك اصل الولد عاقل وامه تهمه
الابن غالى والا ايه يا ورده

رده : غالى وغلاوته الحق ماتتقدر

خليكى انتى القاضى وانتى الشاهده

اسماعيل ابنك دا راجل ؟

وردة لا دا طفل صغير

اسماعيل

لما اخدتيه قلت اطلب بيه كان شعورك والنبى ياورده

ايش حال بقى لما تقومى تربيه وتخطفه واحدة وتيجى شاردة

واستطاع عم اسماعيل ان يعيد السعادة إلى الاسرة الصغيرة . وإلى ام امين وعادت وردة هى وابنها إلى زوجها وإلى حماتها .

وكان فى استطاعة الكاتب أن يحلل بدقة الصراع النفسى داخل نفسية أمين ، حين تنازعته مشاعره تجاه ابنه وزوجته ، ثم استقرار رأيه على أن يظل بجوار أمه التى ربته عندما كان صغيرا ، فضحى بابنه وزوجته فى سبيل أن يظل بجوار أمه . ولكن الكاتب لم يبرز لنا هذا الصراع الجوهرى بل مر عليه سريعا ، وجعل عم إسماعيل هو الذى حل العقده ، وأنهى الصراع الذى كاد أن يشتد لولا التسرع من الكاتب ، فأنهى القصة الزجلية قبل أن تتشابك أسباب الصراع بين أمين وبين نفسه .



للفنان جاك بلانشار

الأم .. والرواية العالمية



لقد غرست جميع الأديان والتقاليد حب الأم في نفوس الأبناء في كل مكان ومن كل لون وجنس. وغرست الطبيعة عاطفة الأمومة الجياشة في كل أم. حتى الأم في الحيوان. وقد وهبتنا الظروف الاجتماعية في بلادنا العربية عدة مزايا وخصال تكاد تكون من معالم الأسرة في بلادنا، فأفراد الأسرة العربية يلتفون حول الأم بسبب الترابط والتماسك الأسرى، وخاصة أن أحوالنا الاقتصادية تساعدنا على ذلك. أما البلاد التي تجبر كل فرد على أن يعمل ساعات طويلة مرهقة ومضنية في سبيل لقمة العيش، بحيث تخرج الأم ويخرج الأب، ويخرج الأبناءجميعا كل صباح إلى أعمالهم أو إلى دراساتهم كأنهم قد شدوا في ساقية لا تقف أبدا. ان تلك الحياة القاسية لاتتيح الفرصة

للابناء أن يلتقوا بأمهم عدة ساعات ليرتشفوا منها الحنان والحب والسلام والسبب فى ذلك أنها مشغولة دائما فى العمل خارج البيت وفى داخله ، تلك الحياة القاسية جعلت بعض المفكرين والمصلحين يبتدعون يوما أسموه بـ « يوم الأسرة » فيه يجتمع أفراد الأسرة ليتحدثوا ويتسامروا مع بعضهم البعض ، وليقدم كل صغير هدية للأم وللأب ، وبالعكس ، وفى ذلك اليوم أيضا يتعرف الأب والأم على مشاكل أولادهما ليحلاها وليستمعا إلى آلامهم وآمالهم وأحلامهم .

أما الملاحظة التى استرعت انتباهى عندما بحثت فى أدبنا القصصى عن عمل فنى كبير يدور حول الأم ، فهى أننى لم أجد قصة كبيرة مثل قصة الأديب العالمى مكسيم جورجى « الأم » أو مثل قصة « الأم » للكاتبة العالمية « بيرل بك » التى نالت عليها جائزة نوبل عام ١٩٣٨ أو مسرحية «الأم» للكاتب «كارل تشابك» . وغيرها من القصص التى تدور حول الأم فى عمل فنى كبير . أماالذى عثرت عليه فى أدبنا القصصى ، فهو عدد لابأس به من القصص القصيرة عن الأم . ولعل الأيام المقبلة تظهر لنا قصاصا عربيا ، يصور بقلمه لوحة خالدة للأم العربية

وسبب اختياري قصة « الأم » لبيرل بك » أنها قصة عالمية يمكن أن تحدث في أي مكان وفي أي زمان ، لأنها تحلل النفس البشرية أدق تحليل ، وتغوص الكاتبة في أعماق نفسية « الأم » في مختلف أطوارها . وإذا كانت الكاتبة قد اشتهرت في العالم بقصتها الرائعة « الأرض الطيبة » فإن قصة « الأم » هذه في رأيي تفوق « الأرض الطيبة » لأن الكاتبة استطاعت أن تعبر بكل صدق عن مشاهد القصة الخالدة :

لقد حاولت « بيرل بك » أن تخلد كفاح أم من ملايين الأمهات في العالم ، فجعلت أحداث القصة تدور في قرية صغيرة بدون اسم حتى يمكن أن تقع في أية قرية في العالم . ولم تطلق على « الأم » أي لقب . وإنما أسمتها « الأم » وجعلت كل أسماء شخصيات القصة بالرموز ، فسوف تعيش أحداث تلك الرواية الفذة مع الأب والأم والابن الأكبر ، والابن الأصغر ، والابنة ، والعجوز وأم الزوج والعم وزوجته والوكيل . . وبعض أهالي تلك القرية الصغيرة

كانت الأم تقوم بكل الأعمال ، فهي تساعد زوجها في الحقل وتطهو الطعام وتنجب الأطفال ، وتتحدث مع حماتها العجوز ، وهذا الحديث يعتبر من أهم الأعمال التي ينبغي أن تقوم بها ، ونفس الأعمال التي كانت تقوم بها كل يوم ، حتى تشابهت الأيام ، وانعدم الزمن بالنسبة لها .

لقد كانت تنهض فى الفجر والكل نيام، فتطلق الدجاج والجاموس وتقودها إلى الفناء ثم تنظف مرابطها وتحمل الروث المتخلف منها إلى الكوم الموضوع فى أحد أركان الفناء، وتذهب إلى المطبخ حيث تغلى الماء لكى يشربه زوجها وأمه العجوز، وتضع بعض الماء المغلى فى وعاء لكى تغسل به عينى الطفلة، كانت هذه الطفلة تنهض صباح كل يوم موصدة العينين لاترى بتاتا حتى تغسل الأم عينيها.

وعند ما رأت زوجها وهو يتثاءب ويحك رأسه، قالت له.

— عندما تذهب لبيع قش الأرز فى المرة القادمة أقصد إلى حانوت الأدوية القريب من باب المدينة وأطلب دواء يشفى عينى هذه البنت.

ولكن الرجل كان ضيق الصدر من تأثير النوم، وقال متبرما

— ولماذا نضيع مالنا القليل فى شراء دواء للعيون المريضة مادام يستحيل أن تموت بهذا السبب، أنى كنت أشكو مرض العينين فى صغرى، ولم ينفق أبى شيئا على هذا المرض رغم أنى كنت ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياه.

هكذا كان شأن الأم كل يوم، ولكنها لم تتململ مرة فى تعاقب الأيام على هذا النحو، ولم تتبرم بتشابهها وتماثلها، ولو خاطبها أحد فى هذا الصدد لحدقت فيه دهشة بعينيها السوداوين، وقالت له.

— ولكن الأرض تتطور بين زمن البذور والحصاد، ثم يجنى المحصول من أرضنا، وندفع نصيب مالك هذه الأرض التى نستأجرها .. حبوبا، ثم هناك أيام الأعياد والسنة الجديدة نعم..وحتى الأطفال يتغيرون ويشبون، ثم أحمل من جديد .. كل شىء يتغير

فى نظرى بل كل شىء يتطور ويحملنى على العمل من مطلع الفجر إلى مغرب الشمس . .

كانت هذه الأم تستمتع بمظاهر حياتها وتعاقب أدوارها فيها ، تستمتع بالوضع والعمل فى الحقل . . والأكل والشرب والنوم ، وكنس الدار وترتيبها ، وسماع نساء المزرعة يثنين على براعتها فى العمل والحياكة بل ان التشاحن مع الرجل كان أمراطيبا وعاملا على إذكاء عاطفتها ومن أجل هذا كله تستقبل اليوم الجديد بنشاط وحمية .

واستطاعت « بيرل بك » بأسلوب السرد المباشر أن تقدم لنا خلال الفصول الثلاثة الأولى كل شىء عن الأم وعن البيئة التى تعيش فيها ، وعن أحلامها وآمالها . . فى دقة وحلاوة أسلوب . وفى الفصل الرابع تبدأ الكاتبة فى تصوير الجانب الآخر من الحياة التى تعيشها الأم فترسم لنا صورة « الأب » الذى سيقوم بدور فعال فى أحداث القصة ، وبحيث يلقى ضوءا قويا على شخصية الأم طوال المواقف المختلفة حتى النهاية .

فالحياة كانت لا تتغير فى نظر الأب ، ولا أمل أمامه فى جديد بل ان ولادة الأولاد التى كانت الأم تجد فيها لذة وسعادة لم تكن بالجديدة أمام ناظريه ، فقد كان الأولاد يولدون جميعا سواعمتشابهين لهم عليه واجب القوت والكسوة ، وإذا كبروا وجب ، تزويجهم ثم يولد لهم أبناء بدورهم فيجيئون جميعا أيضا « ماركة واحدة » وهكذا كانت الأيام تتعاقب متماثلة . وكل يوم لا يأتى بجديد .

وهو نفسه قد ولد فى هذه المزرعة الصغيرة ، ولم ير فى حياته جديدا إلا ماكان من ذهابه أحيانا إلى البلدة الصغيرة الكائنة وراء التل على ضفاف النهر . وهو إذا استيقظ فى الصباح صافح منظر التلال المنخفضة . والسماء التى لا تتغير ولا تتبدل ثم يذهب إلى الحقل فيظل يكد ويكد حتى يجن الليل . ثم يعود إلى البيت الذى ولد فيه وينام فوق الفراش الذى نام فيه من قبل مع والديه حتى كبر وأعدت له مرتبة خاصة

بل لم يكن من جديد فى هذا البيت سوى بعض الأدوات القلائل التى جىء بها عند زواجه . وهى إناء لغلى الشاى وغطاء أزرق فوق الفراش وشمعدان جديد ، واله جديد من الورق لصق فوق الحائط ، وكان هذا الاله يمثل رجلا كهلا عليه مظاهر الغنى والمرح يرتدى ثوبا مؤلفا من ألوان حمراء وررقاء وصفراء متعانقة مؤتنفة ، ولكنه رغم هذا المظهر الباذخ لا يجىء بالغنى المنشود إلى هذه الدار ، وطالما تطلع الرجل إلى هذا الاله ، ولعنه فى ضميره لأنه كان يطل فى مرح على هذه الغرفة الحقيرة التى كانت حقارتها لا تتغير ولا تتبدل .

وتظل هذه الأسرة الصغيرة تكد وتكدح مثل باقى الأسر الموجودة فى تلك القرية . ولكن الأب لا يحتمل تلك الحياة ذات يوم ، فيرتدى أفخم ثيابه ويسرق كل القطع الفضية التى كانت « الام » تخبئها للطوارىء ، ويغادر القرية ولا يعود إليها أبدا .

وقد أرادت « برل بك » بهذا الحدث أن تجعل شخصية « الام » الاستاتيكية تتحول إلى شخصية أخرى ديناميكية كلها حياة متطورة فيها صراع عنيف مع أعماق النفس ، ومع تقاليد القرية ، ومع الزمن ، عند هذه النقطة بدأت « الام » تواجه عدة مشاكل فكل من فى القرية يسألها أين ذهب زوجها ، حتى المرأة العجوز والأطفال كلهم يسألون أين ذهب الرجل ، ولماذا ذهب ، وبدأت همسات النسوة وتتكاثر ولكن « الأم » كانت تبتدع فى كل مرة أكذوبة ، حتى أصبحت الأكذوبة الكبيرة التى بدأت أحداث تطورات شخصية « الأم » بعد أن اختفى الزوج ، وظلت المرأة العجوز تسأل وتلح فى السؤال :

— ترى أين ولدى ؟ .. هل قال ابنى إلى أين ذهب يا ابنتى ؟
عجيب أين ذهب ابنى ؟

وتجيب الأم قائلة :

— سيعود غدا ولا شك يا أمى ، فارقدى الآن ونامى .. سيعود غدا ..

وتجيب الأم عندما يسألها أطفالها :

— سينام فى البلد بغير شك ، ويرجع غدا أو بعد يومين .. سيعود ولا ريب بعد أن تنفد منه تلك النقود .

وتستطرد فى لهجة مريرة :

— وبعد أن يتسخ رداؤه الجديد .. ولا يبقى بد من يغسله .

ومرت الأيام ولكن الرجل لم يعد وزاد همس النسوة ،وجئن إليها ذات يوم ليعرفن سبب هجر الرجل . وعندئذ اختلقت لهن قصة ، لتحافظ على كبريائها وكرامتها .

فقالت لهن بجرأة :

— ان له صديقا فى مدينة بعيدة وقد أخبره هذا الصديق بوجود مكان يعمل فيه ويربح أجرا طيباً ، فلانحتاج إلى إجهاد أنفسنا بالعمل فى الحقول وإذا لم يناسبه هذا العمل فسيعود سريعا ، أما إذا أعجبه ، فلن يعود حتى يمنحه سيدة عطلة .

وذهلت العجوز وهتفت :

— ولماذا لم يخبرنى بهذه القصة الطيبة وأنا أمه ؟

فانتحلت الأم قصة أخرى وأجابت :

— طلب منى ياأمى ألا أخبرك بها لأنه يعرف لسانك « السايب » ويخاف أن يعرف أهل القرية أكثر مما يجب ولأنه يريد ألا يعرفوا شيئا إذا لم يستمر فى العمل .

فقالت العجوز وقد ألمها هذا القول .

— هل قال هذا حقا ؟ .. صحيح يا بنتى إننى كثيرة الكلام لكن لسانى « مش سايب » .

* * *

وهكذا ظلت الأم تكذب ، وتمعن في الكذب والاختلاق وتحبك أطراف كذبها حتى تسبغ عليه طابع الحقيقة . واحتفظت بالهدوء والسكينة وظلت تكدح بمفردها فى الحقل . وكان يشق عليها كما يشق على سائر الفلاحين أن تمنح المالك نصيبا من ثمار كدها لكنهم كانوا يتنازلون عنه صاغرين ،فكانت تحذو حذوهم .

لكنها كانت إذا انتصف الليل ، تبكى فى سكون ومرارة ولوعة . كانت تبكى لأنه ذهب وهجرها ، ولأنها أصبحت تستهدف للعار والفضيحة ،ولأنها امرأة وحيدة ، وقدبدت لها الحياة شديدة القسوة وهى تعول أربعة أشخاص يعتمدون عليها .

وأخيرا وجدت حلا لأزمتها وحيرتها ، فقد ذهبت إلى كاتب رسائل بعد أن باعت كل ما ادخرته من الأرز وحصلت على ورقة نقدية ثمنا لما باعته . وقالت لكاتب الرسائل :

— أريد أن أكتب رسالة بلسان أخ لى يشتغل ولا يمكنه أن يعود إلى بيته فاكتب ما أقول لك .. .. وهو مريض طريح الفراش .. ولذلك فأنى أكتب بلسانه .

وذكرت الأم اسم زوجها باعتباره اسم الأخ ، وذكرت اسم الاخ ، وذكرت اسم مدينة بعيدة كانت تعرف قربها لمسقط رأسها ، ثم ذكرت اسمها هى باعتباره اسم زوجة الأخ التى ستوجه الرسالة إليها ، كما ذكرت اسم قريبها لكى يبعث بالرسالة إليها وقالت له :

— اسمع ما يريد أخى أن يقول لزوجته :

« انى أشتغل شغلا متواصلا ، ولى مركز طيب ، والأكل متوافر لى ، وسيدى رجل كريم . وكل ما أؤديه من العمل هو إعداد الشاى لسيدى وتقديم قصبة التدخين له ، وحمل رسائله إلى أصحابه ، وإنى أتناول طعامى وأنال ثلاث قطع من النقود الفضية فى الشهر ، وقد اقتصدت من أجرتى عشرة قطع فضية حولتها ورقا ماليا له قيمة الفضة فى هذه الأيام ، فأنفقيها على أمى وعلى نفسك وعلى الأولاد .

فقال لها الكاتب : اهذا كل شىء ؟

فأجابت الأم :

— لا .. قل هذا أيضا ..

« لم أتمكن من الحضور فى عيد السنة الجديدة لأن سيدى يحبنى كثيرا ولم يتيسر له أن يستغنى عنى . ولكنى سأحضر فى السنة القادمة إذا تمكنت ، وإذا لم أتمكن سوف أرسل إليك كل ما أدخره من أجرتى مرة فى السنة .

وقل هذا أيضا :

« أخبرى أمى العجوز أنى سأحضر لها عند رجوعى قماشا أحمر لتصنع كفنها الثالث وسيكون من أجود الأصناف .

وهكذا استطاعت الأم بتلك الأكذوبة المحبوكة أن تنقذ كرامتها . وأن تترك زوجها القرية ، إنما كان للبحث عن عمل أرقى

وأفضل . وأخرست الأكذوبة كل الأقاويل والهمسات بل لقد مكنت لأكذوبتها البقاء فترة طويلة حينما قالت فى رسالتها :

« واذا لم أتمكن فسوف أرسل إليك كل ما أدخره من أجرتى مرة فى السنة . » .

وعندما وصلت الرسالة إلى القرية ، فرح الأطفال ، وظل الغلام يقول لكل من يصادفه ان رسالة وردت من أبيه .. وأحدثت الرسالة دويا كبيرا فى القرية الصغيرة .. وتأكدوا من صحتها عندما رأوا مع الأم الورقة المالية . فتراجعوا أمامها فى تجلة واحترام ، وسارت الأم إلى بيتها فخورة مزهوة ، يتبعها الطفلان ، وهما يشاطرانها هذا المجد . ولكنها عندما خلت إلى نفسها ظلت تبكى فى صمت وسكون . ولم تكن الرسالة ولا الورقة إلا هباء أو كالهباء بالقياس إلى كرامتها المجروحة. ولكن تلك الأكذوبة لها قيمة كبيرة ، إذ لم يعد أحد من أهل القرية يعيرها بأن زوجها قد هجرها ، بل لقد جعلت بعض أهالى القرية يسعون إليها سرا للاقتراض منها ، وكان فى طليعتهم كاتب القرية ، وبعض الرجال المتبطلين الذين أرسلوا زوجاتهم للحصول على هذا القرض .

لقد كانت « الأم » منذ بدء شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة وإحساسات عميقة ولكنها ساكنة صامتة. كانت امرأة عميقة الفؤاد موفورة الحياء .. ولم يحدث قبل زواجها ، وحين كانت فتاة عذراء أن اتجهت بخواطرها إلى الرجال من حيث هم رجال .

وكانت إذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق الغريبة عن نفسها ، لا تتطلع إلى الرجال لترى كنههم ، وتستقصى شأنهم ، بل كانت تطوى الضلوع على حنينها وأشواقها وتحتملها. فى صبر ، وسكون ، وانتظار .. .. فلما تزوجت وادركت كنه الرجل ، سطع أمام عينها قدر يسير من ذلك الحنين العميق الصامت الذى كان يجيش فى نفسها .

وفى براعة فائقة طفقت بيرل بلك ، تحلل وتمهد الطريق للموقف العنيف الذى ستقع فيه الأم . فقد صورت لنا فى سطور قليلة بدون إسهاب أو إطالة ، عذرية وشباب هذه الأم . إلى أن وصلت إلى ذروة النضج ، وعنفوان حياتها ، ثم هروب الزوج، وتركها فى قمة الشباب مكبلة بأغلال المسئولية . . مسئولية أربعة أرواح، وبأغلال من الكذب ، فلو كان فى عداد الأموات لأصبحت أرملة واتضح كل شىء .. ولكنها مضطرة كل يوم إلى الكذب حين يسألها كل من يصادفها عن زوجها . لكنها عندما تستقر فى بيتها ، تتمزق قلبا بهذا الكذب المتصل ، وكانت أحيانا تغمرها الوحدة ، ويطغى عليها الحزن ، فتهتف من أعماق قلبها .

« ما أتعسنى وأشد وحشتى .. أنا التى أخلق لنفسى رجلا من عالم الكذب والأوهام .. »

* * *

ولم يفطن أحد إلى ما تعانيه « الأم » من قسوة الوحدة ، والشوق إلى الرجل ، إلا وكيل مالك الأرض ، الذى كان يحضر إلى القرية ليأخذ نصيب المالك ونصيبه .

استطاع هذا الرجل بخبرته وغريزته أن يعرف أن هذه المرأة فى حاجة إلى شىء. فظل يتردد إليها. ولم يأخذ منها نصيبه قائلا لها :

« أنت الآن امرأة وحيدة ، وقد ذهب زوجك عن البيت ، وكل هذا المحصول من عملك الخاص .. ولن آخذ من المحصول سوى نصيب المالك.. ولن آخذ أى أجر عنك أيتها الزوجة الطيبة » .

وظل يحوم حولها ، حتى لم تقو على المقاومة . ونجحت « بيرل بك » فى تصوير هذا الموقف الشائك ، أو مشهد الذلة التى وقعت فيه « الام » بعد صراع عنيف جبار مع نفسها ، ولكن الغريزة متأصلة فى أعماق الانسان كانت أقوى وأعنف ، كانت كالأعصار الرهيب الذى يطوى كل شىء يصادفه . وجرف فى تياره « الام » أيضا .

ففى الفصل العاشر ، صورت الكاتبة المشهد الشائك ، دون أن ينزلق قلمها فى مهاوى « البورنوجرافية » التى تتعمد إثارة الغرائز الجنسية فقط .

واستولى عليها ذعر شديد لم تحس مثله فى حياتها ، فقد أدركت

أن هذا الوهم الذى يساورها الآن سيزيد استعارا ، وضراما إذا لم ..

وهى لم تحلم بأنها ستقوى على الرفض والتمنع وهى تعلم الآن أن هذا النهم الذى بها هو نفس النهم الذى به ، وجعلت تئن أنينا عاليا وتناجى نفسها قائلة :

— من الخير ألا ينالنى .. أواه .. كم أود الا ينالنى .. وأن أنجو ..

على أنها نهضت .. من الفراش .. حتى وهى ترسل هذا الأنين ، وغادرت القرية النائمة وعادت إلى الحقول . وسارت فى الطريق الضيق الملتوى إلى حيث يتعطف حول معبد صغير مهجور .. حيث وقف الرجل عند بابه ينتظرها .. ولم تستطع أن تجاوزه كلا .. فقد دخل المعبد وانتظر ..

فتبعته إلى الباب وأرسلت نظرها .. فاذاهو واقف فى الداخل يترقب وقد لمعت عيناه فى المكان الظليل كعينى الحيوان الوحشى .. فدخلت .. وقفا يتطلعان أحدهما إلى الاخر فى الضوء الكليل كانا مخلوقين غارقين فى حلم مستيئسين .. لا توقفهما قوى الدنيا فى هذه اللحظة .. وتأهب كلاهما للأمر المحتوم .

غير آن المرأة أمسكت لحظة . . فقد أفاقت من حلمها : ورأت آلهة المعبد الثلاثة كبيرهم كهل وقور يحدق أمامه وإلى جانبيه تابعان أقل شأنا . وهم جميعا أرباب طيبون أقيمت أنصابهم فى

جانب الطريق للمسافرين ممن يتعبدون ممن يلتمسون الاعتصام بالمعبد . فتناولت الرداء الذى وضعته جانبا وذهبت إلى الالهة فطرحته فوق رءوسها .. وحجبت أعينها الناظرة المحدقة .. »

• • •

لقد ارتكبت « الام » هذه الخطيئة مرة واحدة ، ولم تعد إليها ، وإن كانت فى شوق وحنين إلى العودة إليها . ولكن بيرك بك لم تغفر لهذه الأم خطيئتها تلك ، بل صبت عليها اللعنات ، وعاقبتها عقابا شديدا . إذ أصيبت ابنتها الوحيدة الجميلة بالعمى ، وعندئذ بدأت المرحلة الثانية من حياة الأم » شاعرة بأنها أجرمت فى حق ابنتها المسكينة ، وذلك بعد أن سمعت كلام الرجل الذى يبيع العقاقير .

« وما فائدة الحزن ؟.. هذا مصيرها .. لأنها فى حياة أخرى قدارتكبت عملا شريرا أو نظرت إلى مشهد محرم ، فاستحلت هذه اللعنة ، أوأن يكون أبوها أو أنت أيتها الزوجة الطيبة قد ارتكبتما إثما .. فمن يعلم سر الانسان ويطلع على خفايا قلبه ، لكن مهما تكن الحقيقة ، فان اللعنة واقعة هنا على هذه الصبية ولا قدرة لمخلوق على دفع القضاء ، ونقض إرادة السماء .. » .

لقد كان العقاب صارما ، خاصة أنه لم يقع على الأم مباشرة وإنما حل بمخلوقة بريئة . عندئذ استحوذ على الأم شعور بالنفور والمقت من نفسها ، وأحست بأنها تخلصت نهائيا من شهوات

للشباب ونزواته وجماحه .. وانطوت صحائفه من سجل حياتها ، وانطمست فى نفسها صورة الرجل من حيث هو رجل ولم يبق فى سمائها سوى ولديها وابنتها العمياء .. والعجوز .

ولى عهد الشباب عن الأم ، ونيفت سنها على الثالثة والأربعين ، وتمرد الابن الأكبر ، وصرخ فيها عندما علم إنها وعدت ابنها الأصغر بخاتم فقال لها :

— وهل كنت طفلا وأنا فى الرابعة عشرة ؟ .. هل كنت ألعب فى موسم الحصاد وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى ؟ .. وهل كنت ترشيننى بخاتم أو رداء جديد أو غيره ، مما لم أكن أربحه وأناله بكدى » .

ثم قال لها منفجرا « نعم .. أنت تحتفظين بالنقود .. وأنا أعطيك كل ما أربحه .. وأنا آخذ بنسا واحدا لشخصى ولا أدخن قصبة صغيرة ، ولا أشرب قدحا من الخمر ، ولا أشترى لنفسى شيئا مما يناله أى شاب ويعده حقا لنفسه .. ومع ذلك فأنت تعدينه بكل مالم أنله فى حياتى ولأى داع ؟! لكى يقوم بالعمل الذى يجب أن يؤديه بلا مقابل حتى يدفع ثمن ما يأكله ومايشربه .. » .

وعندئذ أحسست الأم .. أن الزمن يدور ، وان الابن قد كبر ، لذلك سارعت بأن عثرت له على زوجة .. وأحسست أنها تعيش فى دور جديد من أدوار حياتها .. دور الحياة .. واستغرقت

الكاتبة أكثر من فصلين لتحليل مشاعر الأم فى تلك المرحلة الجديدة ، والمشاكسات التى كانت تدور بينها وبين زوجة إبنها التى لا تلد ، ونجحت الأم بعد مجهود شاق ، أن تعثر على زوج لابنتها . زوجت ابنتها لزوج لم تره ، فقد جاء أحد أقربائه وأخذ إبنتها إلى مكان مجهول . ومضت الأيام سراعا فاشتاقت الأم إلى رؤية إبنتها ،فذهبت إليها بعد رحلة شاقة ، وعندما وصلت إلى المكان الموحش الذى توجد فيه إبنتها « فوجئت بأنها .. قد ماتت منذ لحظات . . وكانت صدمة عنيفة وقاسية شعرت بأنها قد أجرمت فى حق إبنتها المسكينة ، وزوجها دون أن ترى الزوج وأهل زوجها .

وتوالت الصدمات ، فقد قبض على إبنها الأصغر بتهمة الشيوعية ، وحاولت أن تنقذه ، ولكن فقرها حال دون ذلك وذهبت لترى إبنها وهم يعدمونه وعادت إلى القرية والأحزان تطفح منها . وهاتف من الأعماق يقول لها : كل هذا بسبب خطيئتك » .

ولكن أليس للعقاب نهاية ، وما ذنب الأولاد الأبرياء .. لقد عميت ابنتها وماتت بعيدة عنها . ثم رأت بعينيها الدم ينبثق فى رقبة إبنها .. وهو يعدم . والآن .. انها تجلس وحيدة قلقة حتى أنها لم تر حفيدا لها ، فقد مرت السنوات وزوجة إبنها الأكبر لم تلد . كانت كل حياتها ، أن تجلس أمام الدار ، تستعيد ذكريات

شبابها . أيام أن كانت تراقب أولادها وهم يلعبون فى التراب ، وأيام إن كانت تنتظر عودة زوجها من الحقل . واستعادت ذكريات الاكذوبة التى جعلت القرية تعيش فيها حتى انهت الاكذوبة بعد مرور عشرين عاما بأكذوبة أخرى ، وهى وت زوجها لتستريح من التفكير المتواصل فى زوجها ولتؤمن بالحقيقة الواقعة ان هذا الزوج قد ذهب ولن يعود .

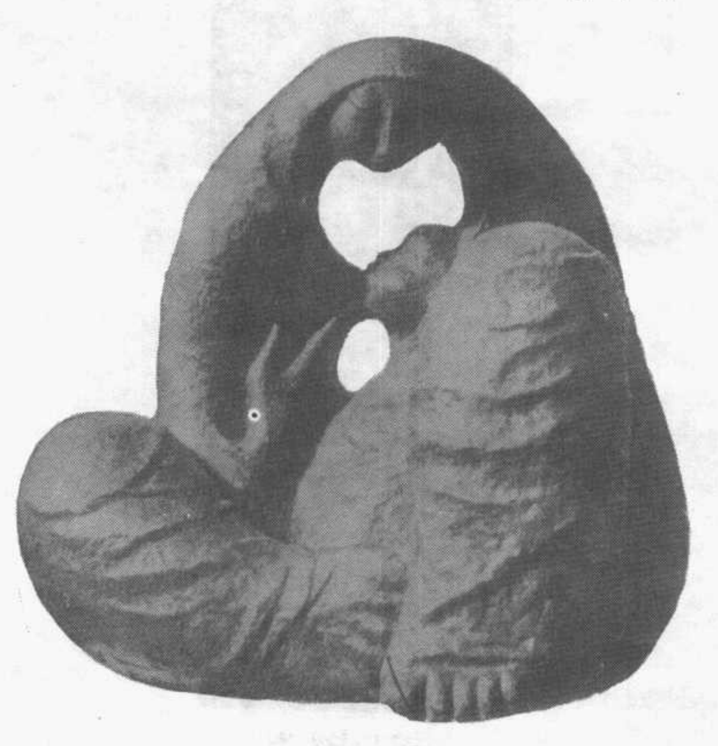
وفيما كانت غارقة فى أحلام ذكرياتها جذبها إلى عالم الواقع إبنها الأكبر وهو يصرخ :

— أمى .. أمى .. جاء ولدى .. حفيدك يا أمى .

وعندئذ شاعت الفرحة على جميع قسمات وجهها ، وذهبت مسرعة لترى حفيدها وراحت تنظر إليه من رأسه إلى قدميه وتضحك وتعاود النظر . وأخيرا دارت .. بعينيها فى أرجاء الغرفة تلتمس زوجة العم — المرأة الوحيدة التى كانت تعرف سر الخطيئة لأنها قامت باجهاض الام — فاذا بها واقفة بين النساء وقد تعلق بها أحفادها لرؤية هذا المشهد .. وما كادت الأم العجوز ترى زوجة العم حتى رفعت الطفل بيديها لكى تراه صاحبتها ، وهتفت وهى تضحك عاليا ، وقد نسيت إمتلاء الغرفة بالنساء ، وبدت عيناها منتفختين من آثر البكاء المتصل .

— انظرى يابنت عمى ..إنى أشك فى إمتلاء نفسى بالذنوب كما خيل إلى فيما مضى . . هل رأيت حفيدى ! ؟

وبتلك العبارة أنهت « بيرل بك » أروع قصصها ، «الأم» واستطاعت خلال تسعة عشر فصلا أن تجعلنا نعيش بكل أحاسيسنا ووجداننا مع تلك الشخصية النامية . شخصية « الام » ومع شخصية ابنها الأكبر ، وابنها الأصغر . بل مع كل شخصية فى القصة . فقد كانت حبكتها الفنية من الجودة والاتقان والروعة بحيث لا يمكن أن تنتزع كلمة واحدة . ونجحت الكاتبة عن طريق السرد المباشر فى تحليل نفسية الأم ، تحليلا نفسيا دقيقا فى كل مرحلة من مراحل تطور الشخصية .



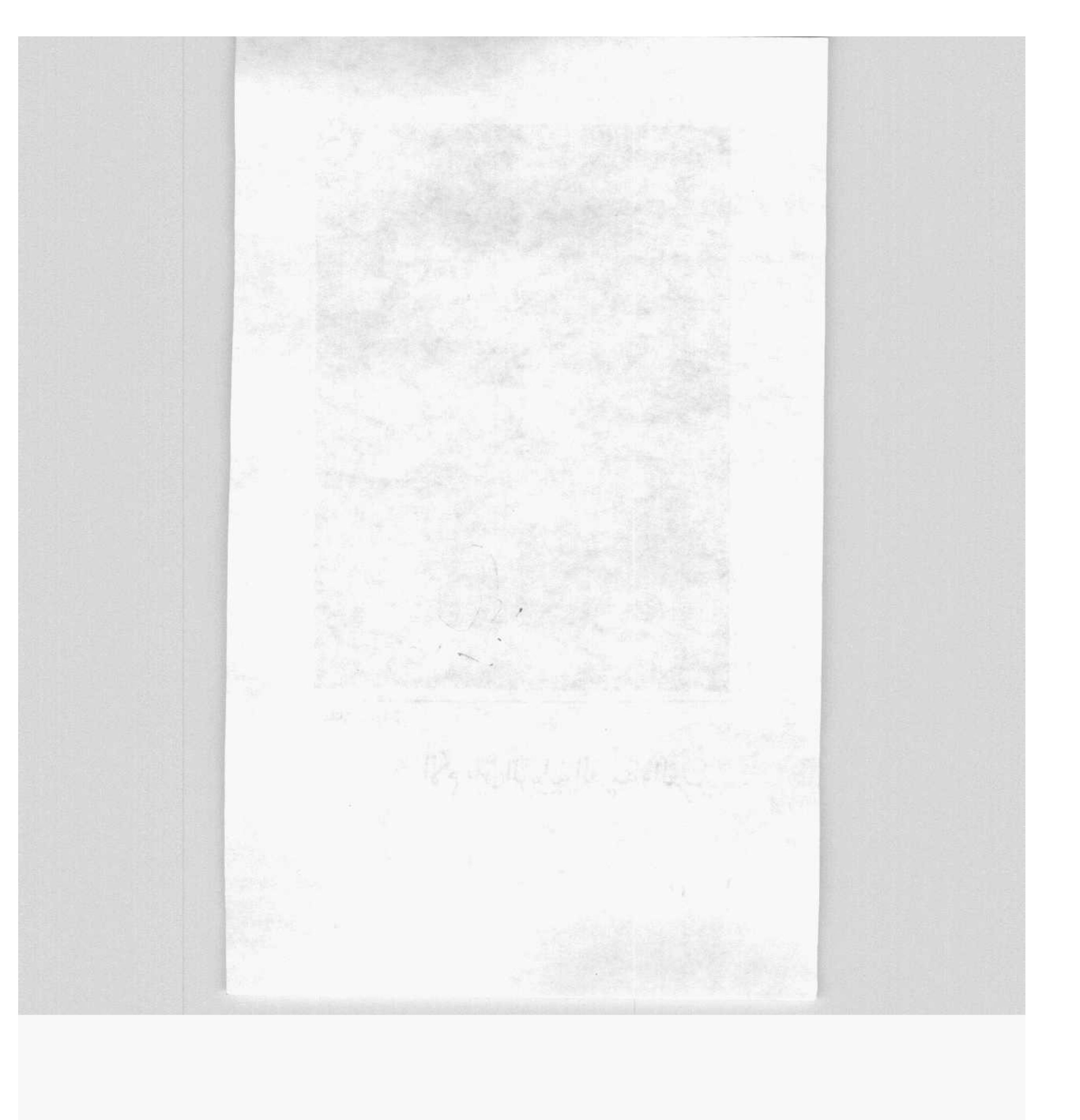


للفنان يوسف فرنسيس



للفنان رينولدز

الأم بين الرواية الغربية والعربية



الأم بين الرواية الغربية والعربية

هناك صفات ومميزات وملامح فى شخصية « الأم » لايمكن أن تختلف فيها أى أم فى العالم مثل عاطفة الأمومة ، والحب العارم لمن تنجبهم ولكن هناك بعض الأمهات الشواذ ، وشذوذهن راجع إلى عوامل نفسية واجتماعية أثرت على شخصية الأم فى تلك الحالات . وقد التقط بعض الروائيين تلك النماذج بين شخصيات الأمهات وعالجوها فى صيغة فنية ، ولوحة أدبية مكتملة العناصر . ولاجدال فى أن كل امرىء مناقد أثرت فيه أمه تأثيرا ملحوظا أو تأثيراً طفيفا ونتساءل الآن ما نصيب شخصية « الأم » فى محيط (الرواية الغربية والرواية المصرية) وإلى أى حد نجح الروائى الغربى أو المصرى فى تحليل أبعاد شخصية الأم ، بحيث يمكننا أن نعتبرها نماذج خالدة فى عالم الشخصية الأدبية والروائية .

وفى رواية فرانسوا مورياك « والدة » عشنا بكل أحاسيسنا ومشاعرنا مع هذه الأم » التى أحبت إبنها الوحيد حبا فوق المعقول . وأحاطت ذلك الحب بسياج حديدى رهيب أفقد هذا الابن الذى بلغ الخمسين شخصيته بكل أبعادها ، وأعماقها وأصبح كما كانت تريد وتبغى أمه ؛ طفلا ساذجا عمره الزمنى وصل الخمسين أما اللامرئى والذى تراه أمه بعينها لا يتعدى مرحلة الطفولة .

واستطاع فرانسوا مورياك فى روايته أن يدفعنا إلى أن نعايش « الام » كازيناف فى تلك المرحلة الزمنية داخل عالم شخصية هذه الام . وأن نشاهد الصراع المرير الذى حدث عندما أراد ابنها أن يحطم السياج الفولاذى ، وأن يتزوج . واستطاع بعد كفاح شاق أن يتزوج « ما تيلد » وأن يضمها إليه داخل السياج . ومع ذلك لم تيأس الأم ، وكانت تصيح غاضبة .

— لن تمتلكى ولدى .. لن تستولى عليه أبدا .

ولكن الزوجة الشابة سقطت طريحة الفراش ، تعانى من سكرات الموت بسبب سقوطها وهى حامل ، وعندئذ أصبح قلب الابن « فرنان » سفيا لأن ماتيلد كانت بالنسبة إليه الثغرة التى انفتحت أمامه فى ذلك السياج الرهيب الذى فرضته عليه أمه سياج من حب عارم ، وحنان مخيف ، ولكن ماتيلد لم تستطع أن تسير فى الطريق الذى سار فيه فرنان خمسين عاما . وحباها الله بعطفه . فأنقذها من أعماق مصيدة تلك « الوالدة » .

ولما كانت « ماتيلد » وحيدة فى هذا العالم . فأنها لم تحس بأنها مشرفة على الموت . ولو كانت أحبت لاضطرها العناق إلى التخلص من قبضة الوجود ، فما كانت تريد الفراق ما دامت لا تعرف الألفة والمودة . لا صوت رهيب على سريرها يذكر اسم إله جبار . لا وجه يذرف الدمع عليها ويحزن على فراقها فيتيح بذلك لها مراقبة غروبها المنحدر إلى ظل الموت خطوة خطوة . ولهذا ظفرت بالميتة العذبة .. ميتة الذين لم يحبهم أحد .

ماتت « ماتيلد » ولم يكن « فرنان » موجودا بالبيت . وعندما عاد وعلم بالنبأ فأحس من أعماق نفسه الساذجة أن أمه قد عجلت بنهاية زوجته . وبدأت مكنونات شخصيته تثو على ذلك الجمود الذى ظلت فيه طوال خمسين عاما . واستجوب أمه فى ريبة وشك قائلا :

— كم كانت الساعة عندما حضرت لتصغى إلى الباب عندما كانت ما تيلد تتألم ؟ .

فأجابته أنها ربما كانت الساعة الرابعة .

— وأخبرت الطبيب أنك سمعت أسنانها تصطك .

— انى استبعدت بعد روية وتفكير أن يكون هذا الصوت ناتجا من احتكاك للأسنان .

— فلماذا لم تعودى ؟

- قالت أنها غير متألمة ولا تشعر إلا بالحر .. وأنها رفضت كل شيء حتى الكينين . فانصرفت مطمئنة جدا .
- لم تكونى مطمئنة جدا ، لأنك عدت الساعة السادسة لتتأكدى من .. من موتها .

وانزعجت الام وأحست أنها أصبحت فى مكان ناء . لوحدها بعيدا .. بعيدا .. عن ابنها فعندما جلست لتتناول العشاء .

رأت كرسى ابنها خاليا . وسألت الخادمة ، فأخبرتها بأنه موجود فوق مع « جثة زوجته » وتناولت الأم « فليستية » العشاء بمفردها وهى ترهف السمع من حين لآخر لعل درجات السلم تفرقع تحت أقدام ابنها المتعب .

وأوحت إلى نفسها بأنه سيعود إلى حظيرتها ، فى وداعة بعد أن يختفى جثمان غريمتها فى التابوت .

وذات يوم حاولت أن تقترب من إبنها ، وهمت بمسح وجهه المتصبب عرقا فأدار وجهه فقالت له :

- جسمك يتصبب عرقا فاذهب لتغيير ملابسك وإلا مرضت ، فلم يجبها ، فأردفت قائلة :
وقد أعددت لك الملابس على سريرك .
وتبعته إلى مكتبه ، وهى تقول له غاضبة :
فإن مرضت فمن غيرى يعالجك أو يعنى بك .

وأخيرا حدجها بنظرة قائلا :

— لم يبق الا أن تتركيني كذلك .

فأفزعتها هذه الضربة ، ولم تحرجوابا .

وكانت كلما اختفى من أمام عينيها ، تسأل الخادمة فى لهفة . أين اختفى ؟ وتعلم انه ذهب إلى فراشه ، وقد أغلق الباب بالمزلاج كما كان يفعل مع ما تيلد من قبل . ولكن الأم صرخت فى أعماقها متحدية روح ما تيلد .

« لن تمتلكى ولدى » لن يكون لك أبدا .. لأنها شعرت أن سيطرتها على إبنها تنحدر إلى الهاوية ، بينما هو قد استلقى على السرير الذى رقدت عليه ماتيلد بجواره قبل أن تفارقه إلى الأبد . يستعيد التقاليد التى كانت تعيش بها أسرته الكبيرة . انه كسائر اسرته ، بل كأكثر الرجال لابد أن يموت دون أن يعرف ما هو الحب .

ولقد لعب القدر هذه اللعبة الغريبة بأن أيقظ فى هذا الرجل مسارب دفينة ، فى أعماق سحيقة . وها هو ذا الينبوع الملئ بالطين يفسح فيه طريقا بطيئا لم يكن يعرف ما هو الحب ، فقد عاش آباؤه عشاقا غيورين لأشجار الصنوبر والكروم . يالها من قلوب شقية لم تولد بعد.ان أمه جعلته عاجزا حتى لا تفقده، ولم تكن تسيطر عليه إلا لأنه قد تجرد من كل شئ .

وربته على أن يحذر من المرأة ، وأن يز دريها ، فقد كان فى الخامسة عشرة من عمره لايعرف إلانوعين من المرأة. «امرأة تكبلك بالأغلال » و « أخرى تسبب لك الأمراض » . غير أن هذه العقبات لم تقف بطبيعة الحال فى سبيل شخص يريد الحب .

وأبدع فرانسوا مورياك فى تصوير وتحليل أعماق نفسية هذه الام ، ونفسية إبنها الذى عشق روح زوجته.ووجد فى هذا العشق ملاذه الأخير فى التخلص من سيطرة أمه وكانت ماتيلد المسكينة هى القنطرة التى عبر من فوقها إلى عالم جديد . عالم الحب والرجولة . وتأكيد الشخصية ، بعد أن كان طفلا يحبو على أرضية حنان أمه المخيف . فاقدا لكل ملامح شخصيته . وكم رددت الأم له فى خلال خمسين عاما .. ماذا يحدث لك بدونى؟ «من حسن حظك أننى على قيد الحياة » فاذا ما فقدتنى ماذا يحدث لك ؟ . ولكن للأسف لقد أصبحت ا لآن أمام عينيه شيئا لا قيمة له ، ولا غناء فيه ، وقد استطاع بدونها أو بالأصح بالرغم منها أن يستعيد هدوءه .

ويصور فرانسوا موريال قصة انفصال الابن عن أمه فى ذلك الحوار النفسى الدقيق ، حين قالت الأم « فلستية » .

— إننى أحظى بطفلى من جديد فهو يحنو على أمه العجوز .

— انها هى التى تريد أن أعاملك بالحسنى .

ثم طبع قبلة على خدها . وانصرفت الأم عنه ، وقد أحست بمرارة هذه الكلمة الشنعاء تشق طريقها فى قرارة روحها . أنها

أصبحت تدين للعدوة برحمتها . اذن.. وجب ان تخضع لهذا العار ولقد أحب ما تيلد حتى بعثها من جديد وأوهم نفسه بوجودها فى نفسه وفى خارج نفسه . ومن هذا الوجود أستمد هدوءا لم يعهده أيام ان كان فى قبضة أمه .

ومنذ تلك اللحظة الحاسمة ، كانت الام كلما جلست أمام ابنها تأكله بعينيها ولم تمض فترة حتى قضت نحبها . ويحكى سكان بلدة . «لانجون» انهم اضطروا أن يمسكوا بالابن « فرنان كازنيناف » لأنه انحنى على الحفرة انحناءة من يريد أن يلقى بنفسه فيها ، ولم يفهم أحد أنه كان فقط يلمح بين أشباح القبر فى الظلام شكل التابوت الذى غدت فيه ماتيلد غبارا ورمادا ، ولا يزال (فرنان) متضايقا من أنه قضى جانبا قصيرا من حياته من أجل زوجته ، بينما الأم قد بسطت عليه جناحيها الهائلين طوال السنين الغابرة وقد شاءت ألا يعيش إلا بها ، كأنه متعلق بأنفاسها .

ولا شك أن شخصيه الأم « فلستية » تعتبر نموذجا رائعا لسيطرة الشخصية الأموية وأن حنان تلك الام المخيف ، يشبه تماما حنان « الدبة » فى الحيوانات فالام عند الدبية تأكل أطفالها الصغار إذا سقط عليهم شعاع من نور ، تأكلها لتخفيها فى بطنها خشية أن يصيبها مكروه . . وهى لا تدرى أن حنانها المريع قد أفقدها روح الحياة .

.. وعلى العكس تماما ، يقدم لنا جوركى فى روايته الخالدة

«الأم» شخصية أم بسيطة ساذجة تخاطر بحياتها فى سبيل ابنها لتنقذه من قبضة رجال الشرطة. وتعتنق مبدأه السياسى، وهى لا تعرف عن هذا المبدأ شيئا، اللهم إن إبنها يفنى روحه فى تحقيق هذا المبدأ الاشتراكى. إذن فكل ما يحبه إبنها لديها من الأشياء المقدسة. وعندما أخبرها رفاق إبنها «بائل» أنهم يبحثون عن شخص يوزع المنشورات الثورية داخل المصنع الذى يعمل فيه إبنها، والذى قبض عليه رجال الشرطة بتهمة أنه مثير للشغب بين العمال، وبأنه يوزع منشورات ثورية. وأن ظهور المنشورات ثانية فى المصنع وابنها مقبوض عليه، فيه تبرئة له. عند هذه اللحظة، انتفض قلب الأم وصاحت «أنا سأقوم بتوزيع المنشورات». وفعلا دخلت الأم المصنع لتبيع المأكولات للعمال. ومع كل فطيرة توزعها كانت ترفقها بمنشور.

وكانت تعمل بحماس ورغبة، لأن ذلك العمل هو سبيلها لانقاذ ابنها من السجن.

وظلت الام تقوم بتلك الأعمال البطولية فى نظر الرفاق، وأصبحت فى نظرهم رمزا يقتدون به. وكانت كلما رأت الرفاق وهم يجتمعون سرا فى بيتها تغمرها نشوة السعادة. وتضفى على كل واحد منهم من حنانها وأمومتها ما يجعلهم لا يستشعرون بالاخطار الرهيبة التى تحيطهم بالخارج.

وطوال أحداث الرواية الضخمة، كان جوركى يغوص

فى نفسية هذه الام البسيطة ويرسم صورتها ، ويحلل شخصيتها بدقة وبساطة ، بحيث جعلنا نحس بأنفاسها الطيبة وهى تلفح وجوهنا عند قراءة الرواية . وأبدع جوركى فى تصويره لقمة المواقف التى وقفت فيها الأم فى نهاية الرواية . حين استمعت إلى القضاة وهم يحكمون على إبنها بالسجن . لقد ابتسمت لأنها رأت إبنها الوحيد قد أصبح مرموقا من رفاقه لأنه يدافع عن المبدأ . ويطلب منها الرفاق أن تذهب إلى ميدان المحطة لتأخذ حقيبة من رفيق آخر فيها منشورات دفاعية عن إبنها .

وفى السطور الأخيرة من الرواية ، استطاع جوركى أن ينتزع قلوبنا الخائفة على هذه الأم ، وأن يجعلها تحاول أن تنقذ الأم من قبضات رجال الشرطة وهم يجرجرونها ، ويضربونها بأحذيتهم ، وبكعوب بنادقهم . ولكنهم لم يستطيعوا حتى آخر لحظة أن يسكتوا صوتها . وكانت آخر كلماتها « ان شعلة الحقيقة لا تنطفئ حتى تسيل منى الدماء .. ولا يمكن أن تقتل النفوس التى بعثت من جديد » . ومهما كان من استغلال جوركى لعاطفة الأمومة فى الخط السياسى لهذه الرواية الرائعة ، إلا أنه نجح فى أن يجعل الكلمات تنبض بالحياة وهى تصور حنان هذه الأم . وتبرز لنا شخصيتها

المتطورة . ، من أم وديعة ساكنة ، لايشغل بالها فى الدنيا إلا أن تبيع فطائرها لأبنائها العمال . إلى أم ثائرة ، تحاول أنتنقذ ابنها من قبضة الذين يحاولون أن يخرسوا أصوات الحقيقة .

.. وبعد أن رأينا ملامح شخصية الأم عند فرانسوا مورياك ، حيث صور لنا نموذجا لعاطفة الأمومة القاتلة ، وعلى النقيض من تلك الشخصية رسم جوركى بريشته المبدعة شخصية الأم التى تذوب فى كل مايهم ابنها لتنقذه من مخالب الذين لايريدون للحقيقة أن تسطع ويشيع دفئها بين القلوب البائسة .

نرى شخصية الأم الفلاحة ، وقد صورتها ثلاثة أقلام مختلفة الاتجاهات والأهداف .

فشخصية « الأم » وهى الرواية المصرية التى كتبها محمد لبيب البوهى . قدم لنا قصة أم فلاحة مات زوجها ، وترك لها ابناً وفتاة . ولكن الابن افترسته غرائزه . ووقع فى مخالب شبكة جاسوسية . وقدم للمحاكمة ، وعندئذ تنكرت ،له الدنيا ،وتنكرله كل شىء حتى زوجته التى تزوجها زواج منفعة تنكرت له وازدرته . وكان فى كل خطوة ينحدر فيها إلى الهاوية يجد انسانا واحدا قد سبقه يريد بكل جهده أن يفتديه .. ذلك الإنسان هو .. الأم . امه التى باعت كل شىء من ممتلكاتها وأهانت نفسها . وتعذبت كثيراً من أجله . ولكنه لم يعرف شيئا من هذا إلا بعد أن طويت تحت التراب . ولكنه عندئذ فقد الأمل فى الراحة وكان يذهب إلى المدافن عند قبر أمه يغسل وجهه بتراب القبر ليكفر عما

ارتكبه من آثام تجاه أمه ، وكانت كلمات السجين الذى كان معه فى السجن تطن وتدوى فى اذنه « أن لإنسان له أم واحدة ، ولكن هناك ملايين من النساء كل واحدة منهن تستطيع أن تكون زوجا له »

والملاحظ على رواية البوهى أنها مليئة بالحكم والمواعظ المنبرية وأنها فقدت كثيراً من المعالجة الفنية فى عديد من فصول الرواية . وكانت شخصية الأم باهتة وهذا راجع إلى أنه حرفنا فى تيار شخصية الابن ، والأحداث التى وقعت له خلال صفحات طويلة من الرواية ، بحيث لم يركز الأضواء ولم يستغل تلك الأحداث فى إبراز مكنونات وابعاد شخصية تلك الأم . وهو متأثر إلى حد ما برواية الأم لبيرل بك ، حيث صورت فيها نموذجا رائعا من شخصية « الأم » الفلاحة المناضلة ، التى فر زوجها اليائس من الحياة الرتيبة التى يعيشها معها تركها واختفى إلى الأبد . وتركها لتواجه فضيحة فى القرية الصغيرة ولكنها اخرستها واختلقت أكذوبة هى أنه ذهب إلى المدينة ليحصل على عمل أفضل ، وأنه سيرسل إليها بعضا من المال . ثم أظهرت الدليل أمام أهل القرية .. ورقة مالية كبيرة ، كانت تقتنيها فى السر لمواجهة الأزمات . وعندئذ انحنت أمامها الرءوس وتوجوها بالاحترام .

واستطاعت بيرل بك آن تقدم لنا شخصية نامية ، متطورة .

تمر فى مراحل مختلفة ، وتصارع وتناضل فى كل مرحلة .
وشخصية الأم عند بيرل بك تأثر بها كاتب الهند عزرا فى روايته الكبيرة « الأم » أو « أم الهند » وجاءت تلك الشخصية رائعة الإثراء والنماء والتطور . وهى تكاد أن تكون نموذجا دقيقا مفصلا لحياة « الأم » فى الريف . فقد صور لنا أحداث الأم وهى شابه جميلة ، وعروس فاتنة . وزوجة مطيعة لحماتها ، خادمة لزوجها فى الحقل . ثم حلل شخصيتها عندما أصبحت أما عليها أن تعول أبناءها بعد أن اختفى زوجها عندما قطعت يداه . وكيف صمدت أمام اغراء المرابى عندما حاول أن يغريها أماأن يعطى لهابعضا من القمح وأن تهب له نفسها لحظة . واما ان يموت طفلها الصغير من الجوع بعد أن هاجم القرية إعصار شديد . ورفضت الأم أن تبيع نفسها ومات ابنها الصغير . وفى مرحلة الشيخوخة وقفت هذه الأم فى طريق ابنها الكبير لأنه خطف ابنة ذلك المرابى الذى امتص خيرات أرضها طوال عشرين عاما . وقفت أمام ابنها و معها البندقية تطلب منه أن يعيد الفتاة إلى أبيها ، لأنها شرف القرية ولاتريد من ابنها أن يلوث شرف القرية صاح ابنها فى وجهها .

— أماه .. انها ابنة المرابى الذى كان يريد أن يشتريك بحفنة من القمح .. والذى تسبب فى موت أخى الصغير والذى امتص دماءنا عشرين عاما .

وقالت له أمه ، وعلامات الزمن حفرت فى وجهها خطوطا لاتمحى :

— لقد حافظت على شرفى ، وشرف هذه الفتاة هو شرف القرية كلها .. وأنت ابنى ولا يمكنك أن تلطخ هذا الشرف وأنا موجودة .

وضحك ابنها ، وهو ممتط جواده الأسود ، وأمامه الفتاة تتلوى :

— لاعليك يا أماه .. إننى أنتقم من المرابى الذى سلبنا كل دمائنا .

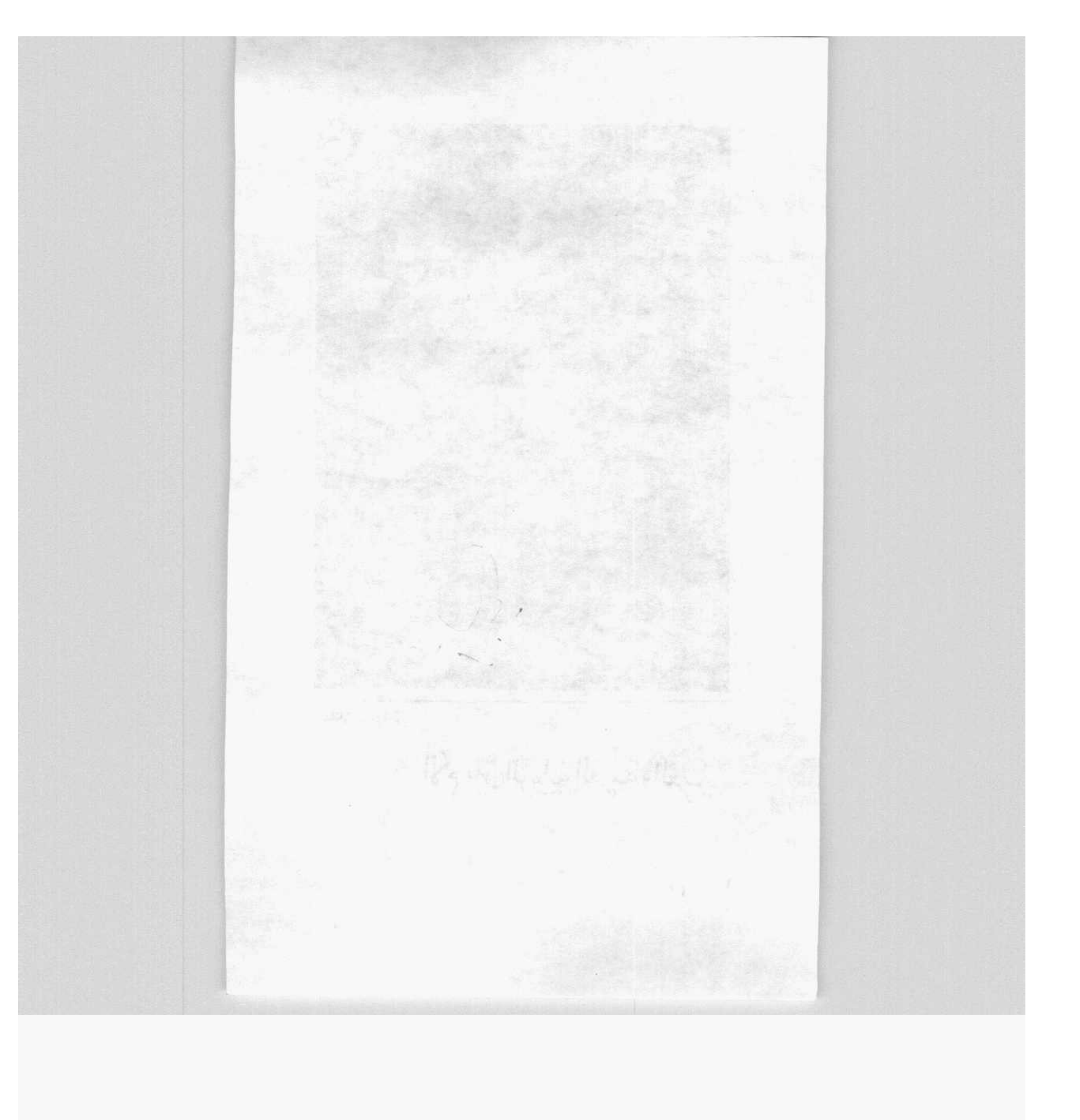
وانطلق بجواده بمرق الريح ، وعندئذ وقفت الأم ورفعت بندقيتها وصوبتها تجاه ابنها ، وأطلقت الرصاص . وتوقف الجواد ، وسقط الابن مضرجا فى دمائه . وهرعت الأم إليه ، وقلبها يتمزق من اللوعة . واحتضنت ابنها ، وهو يلفظ أنفاسه وببطء شديد أخرج من ملابسه الحلى الذهبية — حلية الزواج التى باعتها أمه للمرابى بثمن بخس لكى تتمكن من اطعامهم وهم صغار — لقد سرقها من المرابى ليعيدها إلى أمه . ولفظ انفاسه .. وهو بين أحضان أمه ، وقد أعاد إليها الحلية الذهبية التى تعتبر من الأشياء الهامة التى لا تفرط فيها الزوجة . وبكت الأم دما على ابنها . ولكن قلبها أحس بالراحة وهو فى غمرة الألم .. لأنها انقذت شرف القرية .

إن شخصية الأم فى الرواية الغربية والرواية المصرية ، تؤكد لنا أننا مازلنا فى حاجة إلى قصاص كبير ، يصور لنا أعماق وأبعاد شخصية الأم العربية ، فى إطار روائى فنى ، بحيث يمكن أن نقول .. ان الأم العربية خلدها الروائى العربى فى عمل كبير ، وما أحوجنا إلى هذا العمل الذى تفتقر إليه الرواية المصرية المعاصرة .





الأم ... والمسرح



الأم .. والمسرح

أغلى مافى الحياة .. الحب ..

ونبع الحب فى الوجود ، ينبثق من قلب الأمهات فحبها .. هو أصفى ، وأرق وأعمق الوان الحب المختلفة فى هذه الحياة المضطربة ، المليئة بكثير من المشاكل والاضطراب . بحيث تجعل الفرد تائها بين أمواج الحياة الصاخبة محاولا ، العثور على طوق نجاة يتعلق به .. كأن يتعلق بحب أمه أو حبيبته أو أولاده .. أو أى شىء ما . المهم أن يتعلق بهذا الشىء ، وإلا ابتلعته دوامات الحياة العنيفة القاسية . وقد استلهم كثير من الفنانين والكتاب والأدباء والشعراء والروائيين أعمالهم الخالدة فمن حياة معشوقاتهم أوآسرات قلوبهم فكانت تلك الأعمال معبرة عن نبضات قلوبهم المحبة المليئة بكل الوان الحب ، والعشق والحنان أحيانا ، والبغض والكراهية ، والألم أحيانا أخرى .

لم يقتصر تأثير الأم ، وتحليل مشاعرها واحساساتها على الشعر والزجل والقصة والدراسات فقط ، بل كان للمسرح نصيب من هذا الأثر ، فهناك بعض المسرحيات فى الأدب الغربى ، تتناول شخصية الأم .. فى أهداف سياسية أو وطنية أو لتحريك المشاعر الدفينة فى النفس البشرية إزاء قضية من القضايا .

ومن أهم تلك المسرحيات ، التى سنتناولها بالدراسة والتحليل ، مسرحية « الأم » لكارل تشابك ، و « الأم شجاعة » للكاتب برتولد برشت ، الذى قام أيضا باعداد قصة « الأم » لمكسيم جوركى إلى المسرح .

وكارل تشابك Karl Capek مخرج وكاتب مسرحى وقصاص وصحفى – تشيكوسلوفاكى (٩ يناير ١٨٩٠) . وكان والده طبيبا مشهورا ، فأحسن تربية ابنه الذى تخرج فى أرقى جامعات أوروبا .. فقد التحق بجامعة برلين ثم بجامعة السربون بباريس ، ولهذا فإنه كان يجيد الألمانية والفرنسية بجانب لغته التشيكية . ولم تكد تقوم جمهورية تشكوسلوفاكيا عام ١٩١٨ ، حتى وهبها تشابك روحه وقلبه وقلمه ، وأدبه . وكان بهذا أكبر نصير لرئيسها توماس جريجيو مازاريك ، الذى كان همه ، كما كان هم تشابك قيام ديمقراطية سليمة قوية ، وقد كان لهما ما أرادا .

وقد غذى تشابك خشبة المسرح بكثير من مسرحياته

التحليلية ، الخيالية ، وأجمع النقاد على أن مسرحية تشابك التى سماها (Rut) هى أعظم مسرحياته جميعا ، وهذا الاسم احتصار لمعنى « الانسان الآلى » يسخر فيها من الحياة الآلية التى كان الناس يحيونها فى شرق أوروبا . فلما شبت الحرب الثانية واجتاحت جيوش هتلر أرض بولنده هذا الاجتياح الهمجى ، أرتفعت شهرة (Rut) وشهرة صاحبها الذى أسلم الروح قبل أن يرى البرابرة النازيين يدوسون أراضى الوطن بآلاتهم التى لاعقول لها . واصدر تشابك مسرحية « سرماركوبولس » حيث ناقش فيها فكرة طول العمر. وهل من الخير للإنسان أن يعيش أكثر من مائتى عام مثلا ، ولكنه فى المسرحية ، يميل إلى أن طول العمر وبال على صاحبه ، ثم توالت مسرحياته ، منها « الطاعون الأبيض » و « القوة والمجد » ثم هذه المسرحية « الأم » التى ظهرت عام ١٩٣٩ أى بعد وفاة المؤلف فى ديسمبر سنة ١٩٣٨ . والتى ناقش فيها بطريقته الخيالية التعبيرية الرائعة فكرة الحرب والسلم .. ومتى تتغلب أحداهما على الأخرى .

وتعرف من الفصل الأول من مسرحية « الأم » أن أب هذه الأسرة المكونة من الأم وخمسة أولاد ، استشهد بسبب قائده الجاهل الذى أمره باقتحام أحد معاقل العدو . دون أية حماية تحميه من رصاص العدو . وقد توفى هذا الأب منذ سبع عشرة سنة ، وتظهر روح الأب على المسرح ، وتحدث معها

الأم كما تعودت منذ سنوات ، وتدور بينهما مناقشات يتحدث فيها الأب عن الدور الذى قام به فى قتال ثورة الأهالى . وأنه لم يمت ميتة الأبطال قط ، بل مات بسبب جهل قائده ونزقة ، ثم بسبب هذا الجرح الذى أخذ بسببه أسيراً ، فأذاقه العدو الهوان ، وتركوا جرحه ينزف حتى مات .. وهذا خلاف ما ادعته النشرة الرسمية وصفته بالبطولة ، وهو يؤدى واجبه فى المعركة !

وتحكى « الأم » لزوجها كيف قاست لتربى أولادهما الخمسة بعد مماته . لكن ابنها الاكبر « اندرو » الذى درس الطب وتخرج فى أعظم كلياته ، تطوع لمحاربة الحمى الصفراء فى بلاد نائية . وهناك هلك . لأنه تطوع ، لكى يجرب أثر هذه الحمى فى الجسم ، فوافق على أن ينتقل إليه عدوى هذا المرض الخبيث ليسجل اعراضه فيه . وكانت النتيجة أنه هلك ، ويظهر روحه بجوار أبيه .

ويضطرب الأب عندما يسمع صوت طلقات نارية فى الحديقة ، ويعرف أن ابنيه بيتر ، وكريستوفر يتدربان على إصابة الهدف . وتثور الأم لأنها لا تريد أن يكون أبناؤها مثل أبيهم يموتون فى الحرب بسبب قائد جاهل .. ولكن الأب يقول :

الأب : اعتقد ياحبيبتى ، أن من حقك أن تفخرى بهم كل الفخر ، أو لست كذلك ..؟

الأم . الواقع أننى لست على يقين من ذلك بل أشعر كأننى

دجاجة فقست نسوراً ، ثم أعود فأقنع نفسى أحيانا بألا أكون ضيقة الأفق ، وألا أقف حجر عثرة فى سبيل ميولهم ، إنه لمروع حقا ياريتشارد ، كيف تتغير طبيعة المرأة عندما تصبح أما .

ثم تظهر روحا ثالثة ، هى روح الابن الثانى « جورج » الذى التحق بسلاح الطيران ، ووقع عليه الاختيار ، بتجربة فى الطيران المرتفع لضرب الرقم القياسى فى هذه الناحية . ولكن طائرته تسقط . وعندما عرفت الأم بذلك ، سقطت على أحد الكراسى ، وقد زلزلها الخبر ، وظلت تنشج نشيجا طويلا مكتوما .

وفى الفصل الثانى نرى الأخوين كريستوفر ، والصغير « تونى » يتجادلان فى موقف أخيهما « بيتر » الذى انضم إلى الحزب الأحمر ، بينما انضم « كريستوفر » إلى الحزب الأبيض ، فى تلك الفترة التى فرقت كلمة الأمة ، وقسمتها إلى حزبين متحاربين .

وتظهر روح بيتر على المسرح ، وتعرف الأم . فتقع مغشيا عليها من قوة الصدمة ، فقد قتله أعضاء الحزب الآخر رميا بالرصاص . ان « بيتر واندرو وجورج والأب » ... أصبحوا جميعا أشباحا .. يحاولون العناية بالأم المغشى عليها ويتحاورون فيما حدث كله .. ويسعف الدكتور اندرو أمه ، ثم

يتركها راقدة ويبدأون المناقشة ، فيروى كل منهم الطريقة التى مات بها ، ويقول الأب فى النهاية .

الأب : أعلم أنكم جميعا قد ضحيتم بحياتكم فى سبيل أمر عظيم .. أندرو فى سبيل العلم وجورج فى سبيل تقدم الطيران ... أما أنت يابيتر .. ففى سبيل أى شىء ضحيت بحياتك ؟

بيتر : فى سبيل الحرية والمساواة ياأبى .

الأب : آه .. أما أنا .. فقد مت فى سبيل الوطن وشرف الكتيبة .. أو .. لأن القائد أصدر تعليمات خاطئة ، ولكن لا علينا من ذلك كله .. أنها جميعا أعمال عظيمة تستحق أن نضحى بالحياة فى سبيلها .

وبينما هم فى حديثهم ، إذا صوت المذيع فى المذياع وهو صوت « كريستوفر » نفسه .. يقول :

كريستوفر : ان القائد العام يأمر الحمر للمرة الأخيرة بأن يلقوا السلاح ، ووقف هذه المذابح المنكرة فى ظرف خمس دقائق ، فإذا لم ينفذ هذا ، فسآمر بضرب المدينة وتدميرها على رءوسهم .

وهنا يثور بيتر . أى روح بيتر التى كانت تتلهى بالشطرنج فى تلك اللحظة ، تحاول حل مشكلة من المشكلات ، ويرمى البيض بأنهم أوغاد متوحشون سفاحون ثم يهتف بالحمر ألا يستمعوا إليه .. إلى كريستوفر أخيه . وأن يصبروا ويصابروا حتى يتم

النصر لقضية الحرية والمساواة ويزول الطغيان .. وتنقضى الدقائق الخمس فيأتى صوت المذيع ينصح الأهالى بالنزول إلى « الدور السفلى » بالمنازل لأن الضرب سيبتدىء .. وعند ذلك تستيقظ الأم فتهتف بأبنائها .. أبنائها الأشباح هؤلاء .. ثم تسأل تونى الذى يدخل فى تلك اللحظة ، فتتلاشى الأرواح .. حتى إذا أضاء المصباح وسألته أمه عن بيتر أجابها بأنه لم يعد بعد .. ثم يتناول مسدسا ، فتسأل عن السبب ، فيداور فى اجابته ، فإذا سألته عن كريستوفر أخبرها أنه أخذ بندقيته ، وخرج لأن الواجب كان يحتم عليه ذلك ، قائلا لها « لا تغضبى ياأمى » .

ويشتد الصراع بين الحزبين ، وتدور حرب أهلية طاحنة ، يقتل فيها كريستوفر . وبينما كان الأهالى فى تطاحن انتهز العدو الفرصة . وهجم على البلاد وهى فى حالة تمزق داخلى ، وانهيار فى البنيان . وترك الأهالى ما كان بينهم من خلاف والتفتوا إلى العدو يقاومونه . . وتردد المذيعة فى الراديو .. تناشد الأهالى .. إلى حمل السلاح قائلة :

« ليس هذا صوت إنسان ، ولكنه صوت الوطن نفسه يناديكم أنا أمكم الو طن . أنا أنادى جميع أبنائى .. أن هلموا إلى الدفاع عنى ، هلموا إلى يا أبنائى دافعوا عنى يا أبنائى . »

ولكن الأم تقفل جهاز الراديو صائحة :

— لا . أنت لست أما ، ولكننى أنا كذلك ، أنا أم ، أسامعة

أنت ؟ أى حق لك تجاه أولادى؟ . . لو كنت أما لما أرسلتهم إلى الحرب ، ولخبأتهم كما افعل أنا ولغلقت دونهم الأبواب ، ولصرخت كما أصرخ .. لا .. لن أتخلى عنهم أقول لك الحق ، لم يبق لى أحد سواى أنا وحدى ، امرأة عجوز ، خرفاء ، لم يبق لى أحد .. لا أحد إطلاقاً .

وتلفتت الأم وراءها ، فترى ابنها الأخير الصغير « تونى » فتحاول أن تمنعه من الخروج ، ليقاوم العدو لأنه صغير لم يبلغ الثامنة عشرة بعد . ويدور هذا الحوار المتصارع بين الأم وابنها .

تونى : كل زملائى فى الفصل قد قرروا أن يتطوعوا .. أتوسل إليك يا أمى يجب أن تدعينى أذهب .

الأم : كلام فارغ يابنى .. أى نفع يمكن أن تكون لهم ؟

تونى : أنت مخطئة فى هذا يا أمى . . فنى مقدورى أن أكون جنديا كأى زميل من زملائى فى الفصل، ثم إننى قد تعهدت .

الأم : لمن ؟

تونى : لزملائى فى المدرسة يا أمى .

الأم : أظن هذا أمر يتعلق بأملك تونى أكثر مما يتعلق بزملائك فى المدرسة .

تونى : آسف يا أمى .. ولكن إذا كانوا سيذهبون جميعا .

الأم : فلا لزوم لذهابك إذن ياولدى العزيز .. بل تبقى هنا فى البيت

تونى : لماذا يجب أن أبقى أنا من بين جميع الناس .

الأم : لأنك لاتصلح لمثل هذا النوع من العمل يا تونى . أنت ضعيف البنية .. أضف إلى ذلك أننى لن أسمح لك بالذهاب أليس فى هذا ما يكفى ..

تونى : أرجوك يا أمى ألا تغضبى ، ولكن هذه هى الفرصة الأخيرة لانقاذ كل شىء لانقاذ الوطن ..

الأم : وهل ظننت أنك ستنقذ الوطن .. هيه ؟

تونى : لو أن كل أم تتكلم بمثل ما تتكلمين ..

الأم : لايدهشنى ذلك أبداً .. أتراها مستطيعة أن تتقبل فكرة انتزاع أبنائها منها ، الواحد تلو الأخر ، فى هدوء واستكانة ، إنها لو خضعت لهذا عن طيب خاطر لما استحقت أن تسمى أما .

تونى : ولكن أمام هذه الحروب الرهيبة الطاحنة يا أماه ..

الأم : إننى لم ابدأها ياتونى .. ما من أم أشعلت نيرانها ، أننا نحن معشر الأمهات ياولدى العزيز ، لم نشهر

حربا ابدا . أن كل عملنا فيها أن ندفع أولادنا ثمنا لها . ولكن كفانى غباء الآن . فلن أجرد لهم بالولد الوحيد الذى بقى لى .

تونى : لا تغضبى يا أمى ، ولكن لا بد لى من الذهاب .. أما علمت أنه قد صدر أمر ملزم بذلك .. أننا جميعا قد أمرنا بالتطوع .

الأم : أنك لم تبلغ مبلغ الرجال بعد ياتونى .

تونى : ولكننى لست طفلا ياأمى .

الأم : حتى أنت .. تريد أن تتخلى عنى الآن .. لقد أصبحت عاجزة عن أن أفهم احداً .. حتى أنت ياتونى ..

تونى : أمى ، أنت تبكين ، إذن فأنت ستسمحين لى بالذهاب ؟

الأم : لا .. ياتونى .. لن أتخلى عن ولدى .

تونى : ولكن ياأمى .. أنت لا تستطيعين أن تتصرفى معى على هذه الصورة سوف أهرب .. سوف أهرب منك .

الأم : تونى .. أتعلم ما هو واجبك ؟ . . واجبك أن تبقى معى .. أنك تدين لى بذلك .. من أجل أبيك وأخوتك .. فمن المؤكد أن لى عليك حق الرعاية .. أما لى عليك ذلك ياتونى ؟

تونى : بلى ياأماه ولكن ثمة واجبا أكبر الآن ..

ويستمر هذا الحوار الممتع الرائع .. بين الأم وابنها، ثم تتحدث مع أشباح أبنائها وزوجها وجدها قائلة لهم :

الأم : إننى محنقة على العالم ، إن أطفالى يرسلون على الدوام إلى منيتهم فى سبيل قضية أو أخرى، فى سبيل المحبة ، أو خلاص البشرية أو ما يطيب لكم أن تطلقوا عليها ، من الأسماء والصفات، ولكن هل تقدم العالم ؟ .. هل أصبح عالما أفضل ؟ وهل كان من وراء ذلك أى منفعة ؟

الجد : بلى ياعزيزتى ، لقد دعمت الأساس لأروع التقاليد ، وهو أمر من الأهمية بمكان .. كما تعلمين ..

ولكن صوت المذيع والمذيعة ، يكشفان الحالة السيئة التى وصلت إليها البلاد . وأن العدو قد أطلق أحد طوربيداته على سفينة التدريب « جورجون » وعلى ظهرها أربعمائة شاب يتمرنون ، وقد غرقت السفينة . كما أغارت طائرات الأعداء على إحدى المدن وكان عدد الضحايا أكثر من ثمانمائة شخص من الأهالى ، كلهم من الأطفال والنساء .

صوت امرأة فى مكبر الصوت: أننا نشهد سكان العالم نشهد البشرية جميعاً على هذا العدوان الآثم ، فقد أغارت طائرات العدو صباح اليوم على قرية « يورجو » وألقت

قنابلها على مدرسة القرية . وبينما كان الأطفال يتلمسون النجاة ، حصدهم العدو بمدافعه الرشاشة ، فجرح ثمانون طفلا ، وقتل تسعة عشر طفلا . وتطايرت فى الجو أشلاء ثلاثين طفلا .

الأم : ماهذا الذى تقول ؟ أطفال ؟ .. أهم يقتلون الأطفال الآن ؟

تونى : (يتفحص الخريطة) أين موضع هذه القرية ؟ .. أين موضعها ؟

الأم : (منتصبة كما لو كانت قد تحولت إلى صخرة) ...
أطفال .. أطفال كأبنائى عندما كانوا أطفالا ..
أطفال بشعورهم المشعثة ووجوههم المتسخة .

الام : (تخطف البندقية من مكانها على الحائط ، وتدفعها فى يدى تونى الممدودتين ، وبحركة كاسحة من ذراعيها (اذهب

ويسدل الستار على مسرحية الأم التى استطاع فيها كارل تشابك أن يحرك النفوس البشرية ويتعرض لأصعب المشاكل والأزمات التى تتصل بالحروب فى أسلوب رائع وحبكة مسرحية متقنة ، فحلل نفسية هذه الأم تحليلا ، كشف فيه أعماقها وعرض لنا أدق الخلجات ، وذلك الصراع العنيف المستمر طوال المسرحية داخل نفسية الأم . ويمكن أن نسميه ظهور الأشباح على أنهم تعبير مجسم لما يدور فى نفسية الأم فى صراع عنيف ،

وبصعوبة وافقت الأم على أن ترهن عربتها ، لتحصل على بقية المبلغ وأرسلت إيفت إلى هناك ولكنها عادت شاحبة الوجه ، وقالت للأم :

ايفت : نجحت مساوماتك ، احتفظى بعربتك أما هو فقد تلقى إحدى عشرة رصاصة انك لا تستحقين أن أساعدك منذ الآن . لكننى سمعتهم يقولون أنهم لا يعتقدون أن الصندوق قد ألقى به فى النهر . ويقولون أنكم جميعا قد تواطأتم معه ، وسيأتونكم بجثته . فحاولى ألا تظهرى أى تأثر وإلا ضعتم جميعا ، انهم يقتفون أثرى . أتريدين أن آخذ معى كاترينة (الأم شجاعة تهز رأسها) . . هل هى تعلم ؟ لعلها لم تسمع دق الطبل ، أولم تفهم .

شجاعة : انها تعلم إذهبى وأحضريها .

« ايفت تذهب لاحضار كاترنا ، وهذه تجلس إلى جوار أمها ولا تتحرك ، الأم شجاعة تأخذ بيدها . يدخل فلاحان يحملان نعشا مددت عليه جثة تحت كفن . والعريف يمشى إلى جوارهما : يضعان النعش على الأرض)

العريف : هذا شخص لانعرف اسمه . ولا بد من قيد اسمه حتى يكون كل شىء على ما يرام لقد كان عندك ،

وتناول وجبة طعام . انظرى .. هل تعرفينه (يرفع الكفن هل تعرفينه ؟ الأم شجاعة تهز رأسها) كلا ؟ ألم تريه قبل أن يأتى لتناول الطعام عندك ؟ (الأم شجاعة تهز رأسها (مرة أخرى احملاه ! وادفناه فى مقبرة المجهولين .. لا أحد يعرفه .. يحملانه

هكذا وضع « بريخت » الأم شجاعة .. فى موقف من النادر أن تقفه . فهى حتى لم تستطع أن تذرف دمعة واحدة على جثة ابنها ، وإلا إنكشف أمرها ، وقتلوها هى وابنتها على الفور . ولكنها ضغطت على نفسها وداست أمومتها وحبست مشاعرها . وخففت عبراتها فى هذا الموقف . وكأنها تستعيد كلام أحد الجنود إليها عندما جاءوا ليأخذوا ابنها الأكبر ، ليكون جنديا . . لا يمكن لأحد أن يشاهد الحرب ، دون أن يدفع ثمن مشاهدته .. هل تريدين أن تشاهدى الحرب ، وتتاجرى فقط دون أن يمسك أى سوء هذا لا يحدث إطلاقا أيتها الأم ؟ ..

ولعل خير تعبير عن تلك الأم » ما قاله لها الواعظ ذات يوم من أيام الحرب ، عندما أرسلت إبنتها

كاترين مع كاتب الكتيبة لشراء بعض البضائع :

الواعظ : هل يمكن أن نعهد بها للكاتب ؟

شجاعة : إنها ليست من الجمال بحيث يفكر رجل فى أن يعبث بها .

الواعظ : انى أعجب بك كثيرا .. حين أراك هكذا تديرين أشغالك التجارية وتتخلصين من المأزق ، أفهم لماذا يسمونك « شجاعة » ؟

شجاعة : إن الفقراء فى حاجة إلى شجاعة ، وإلا ضاعوا ، لابد لهم منها على الأقل للنهوض فى الصباح الباكر ، فان حرث الحقل فى أثناء اشتعال نار الحرب ، وإنجاب أولاد بينما المستقبل مظلم .. كل هذا يستدعى شجاعة قاسية . وهم فى حاجة أيضا إلى الشجاعة حين يواجه بعضهم بعضا فى المعارك التى يرغمون على خوض لذبح بعضهم بعضا ، وأن يتحملوا الأمبراطور والبابا هذا أيضا يدل على شجاعة غير عادية ، لأن هذين يتطلبان منهم حياتهم.

وتقوم الأم بالارتزاق من الجيش الذى تسير معه إلى أن وقعت هدنة قصيرة ، أعدم فيها ابنها الثانى رميا بالرصاص ، لأنه ارتكب جريمة النهب ، فى حين أنه عندما نهب الفلاحين أثناء الحرب ، أجلسه القائد

بجانبه ، ومنحه وسام البطولة أما ابنتها «كاترينا»
الخرساء الصماء ، فقد أنقذت أهالى المدينة من هجوم
غادر كان العدو يريد القيام به ، فقد صعدت إلى
سطح المنزل ، وظلت تضرب على الطبل . وحاول
جنود الأعداء أن يمنعوها ففشلوا وكانوا يخشون أن
يطلقوا عليها الرصاص ، حتى لا يتنبه أهالى المدينة ،
وعندئذ صاح فيها الملازم لآخر مرة :

توقفى عن قرع الطبل

ولكن كاترينا ، كانت تقرع بأقصى ماتستطيع من
قوة وتبكى .

الملازم : (صائحا) أطلقوا النار

(واطلق الجنود النار ، واصيبت كاترينا ، وسقطت
مضرجة فى دمائها وهى تحاول أن تقرع الطبول)

الملازم : انتهت الضجة

(ولكن تبعت قرعة الطبل الأخيرة ، طلقات مدافع
المدينة)

الملازم : لقد نجحت الفتاه :

لقد كانت « الأم » بعيدة عن ابنتها فى ذلك
الوقت ، فقد ذهبت إلى المدينة لشراء بعض الحاجات

لتبيعها فى عربتها عندما جاءت رأت ابنتها جثة هامدة . وتسمرت الأم فى مكانها ثم ركعت بالقرب من ابنتها ، ووقف الفلاحون بجوارها .. مطأطئى الرءوس وتحدث أحد الفلاحين إلى الأم .

الفلاح : لو لم تذهبى إلى المدينة للتجارة المريبة ، فلعل شيئا من هذا كله لم يحدث .

شجاعة : أنها تنام الآن .

احدى الفلاحات : انها لا تنام .. ينبغى أن تفهمى أنها ماتت .

الفلاح : وأنت يجب عليك أن ترحلى ، إن فى هذه المنطقة ذئابا ، وأن فيها قطاع طرق أسوأ من الذئاب .

شجاعة : نعم .

(تذهب لاحضار غطاء من العربة لتغطية ابنتها الميتة).

الفلاحة : أليس لك غيرها ... أليس عندك من تستطيعين الذهاب إليه ؟

شجاعة : نعم .. واحد .. هو إيليف ..

الفلاح : لابد أن تبحثى عنه ، أما هذه فسنعنى نحن بدفنها كما يجب فاطمئنى من هذه الناحية .

شجاعة : خذوا هذا المال لتكاليف دفنها .

وتمضى الأم . . تجر امامها عربتها ، بعد أن فقدت أولادها الثلاثة .. وقد مات كل منهم أمام ناظريها .. وهى لا تستطيع إلا أن تواصل الطريق .. لتعيش بين الدخان والبارود ، ومعارك القتال .

وقال بريخت ، عندما كتب هذه المسرحية عام ١٩٤٩ ، مفسرا بعض ما كان يرمى إليه من كتابتها .

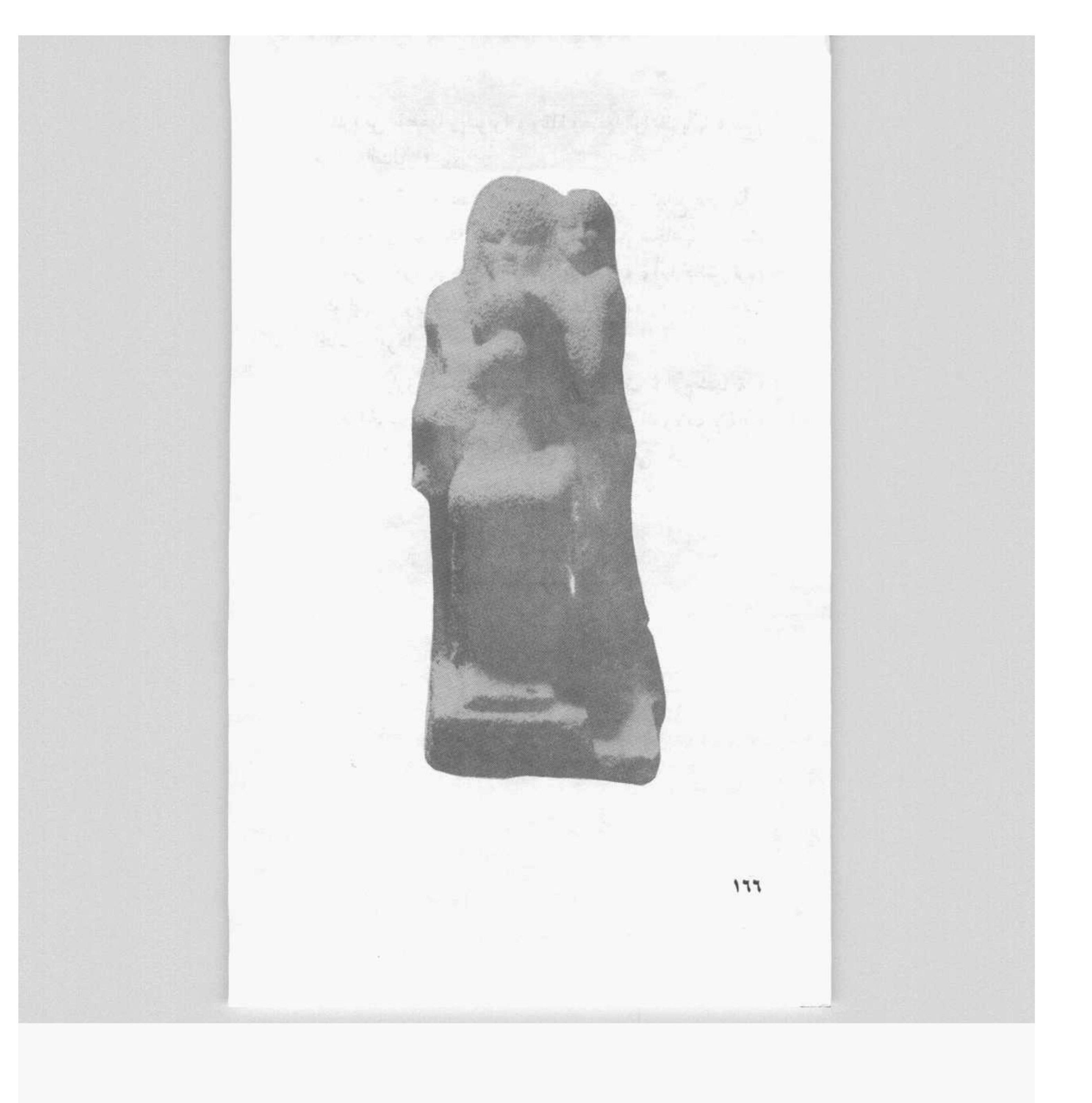
« إن ماينبغى على من يمثل مسرحية « الأم شجاعة » أن يبينه فى المقام الأول هو انه فى الحرب ليس صغار الناس الذين يصنعون الأعمال الكبيرة ، وأن الحرب — وهى طريقة أخرى لمواصلة التجارة — تجعل من كل فضيلة إنسانية قوة فناء ترتد حتى ضد من يملكها ، وأن أية تضحية فى سبيل القضاء على الحرب ينبغى بذلها مهما غلت » .

وشخصية « الأم » شجاعة .. حافلة بالنقائض رحيمة بأولادها قاسية على غيرهم اقتضى الأمر ، متفانية ، كلها إيثار إن اتصل الأمر بذويها أنانية محدودة أن كان فى ذلك ماىحقق أهدافها .
و « الأم شجاعة » هى تمثيل صادق لروح عامة الشعب ، تسعى للكسب بأصرار وعناء ، وتتحايل للعيش وتنتقل بسرعة من معسكر إلى معسكر حتى وجدت فى ذلك فرصة لكسب العيش . وفيها مكر وغرور معا . تبارك الحرب لأنها وسيلتها للكسب ، ولا يهمها أى الفريقين ينتصر ، إنما المهم عندها أن يدفع الجنود بعد أن

يأكلوا من مقصفها ويشربوا ، ولهذا وصفها الواعظ بأنها « ضبع ميدان القتال » .

وشجاعتها ، لاتنطبق على وصفها بانها كانت تدافع عن مبدأ ، أو عقيدة أو حتى الدفاع عن الوطن ، ولكن شجاعتها ، كانت تنحصر فى خروجها من المآزق التى مرت بها ، وأنها كانت ترى جثة ابنها ، ولا تستطيع أن تذرف عليه دمعة واحدة ، خشية افتضاح أمرها .

نمط بارز جسمه بريخت ، من بين وظائف « الأم شجاعة » وسط الحرب المهلكة ، داعيا إلى أن تبذل كل المحاولات لإيقاف مجزرة البشرية عندما يفقد الانسان عقله .. وهى الحرب !



وصل إلى الذروة المنشودة ، وهى .. تغيير موقف الأم فى نهاية المسرحية ، فدفعت بآخر أبنائها إلى المعركة .. للدفاع عن الوطن الحقيقى هذه المرة .

وبرع تشايك فى أن يعظنا دون ملل ، أو أن تحس النفس بهذا الهدف المباشر ، فبين لنا عن طريق الرمز نهاية التحزب الأعمى والحزبية الحمقاء التى أدت إلى إنشقاق فى الأسرة الصغيرة بين الأخ وأخيه ، ثم انشقاق كبير فى الأسرة الكبيرة ، الذى أدى فى النهاية ، إلى ظهور العدو الحقيقى للوطن ، وانتهاز الفرصة ، لينقض على المتنافسين الذين أعماهم التحزب الأعمى .

وبالرغم من حرص «الأم» الشديد على أبنائها ، وخوفها عليهم من الموت وشراسة الحرب ، إلا أنها فى النهاية تدوس على أمومتها ، من أجل الأمومة الكبيرة .. أمومة الوطن ، عندما لا تجد الأمهات أى مفر من تقديم فلذات أكبادهن .. لانقاذ شرف الأم الكبرى .

وفى نفس هذا المجال عن الحرب ، وضع برتولد بريخت الكاتب والفنان الألمانى مسرحية « الأم شجاعة » وهى قمة إنتاجه المسرحى كتبها فى عامى ٣٨–١٩٣٩ . و « الأم شجاعة » هى سيده تعيش من التجارة أثناء الحروب ، وهى تاجرة حرب ، لا يهمها ما يحدث فى الحروب من مآس ، وفواجع ، ما دامت تحصل على المال لتربى أولادها الثلاثة ، بنت صماء «كاترينا» و«إيليف» ابنها الاكبر و (الجبن السويسرى) ابنها الأصغر . و « الأم شجاعة » تملك عربة متنقلة مليئة بكل أنواع الطعام واحتياجات الجنود المتحاربة

وهى تنتقل مع االقوات المتحاربة خلال حرب الثلاثين عاما فى الفترة بين سنة ١٦٢٤ وسنة ١٦٣٦ فى السويد وبولندا وألمانيا .

وقدبدأت «الأم شجاعة» نشاطها التجارى مع قوات البر وتستنت واختطفوا ابنها الاكبر ليكون جنديا مع المقاتلين وبعد عامين التقت بابنها الأكبر . فى أحد المواقع ، وكان القائد يحتفل به لشجاعته فى تأدية واجبه . فى سرقة مواشى الفلاحين ، والاعتداء عليهم ولكن بعد مرور ثلاث سنوات من ذلك الحادث . كانت الأم شجاعة أسيرة هى وباقى الكتيبة الفنلندية وتقع لهم أحداث جسام . فقد قبض العدو على إبنها الأصغر « الجبن السويسرى » وحاولت أن تنقذه ، وتدفع رشوة لانقاذه ، وقالت للعاهرة « إيفت » .

االأم : إن الأمر يتعلق بحياة إبنى .. اسمعى .. كونى عاقلة ، ولا تذكرى شيئا عن الذين يريدون إنقاذ حياته ، ولا تقولى لهم ممن جئت بهذا المبلغ بحق السماء ، افعلى كل شىء باسمك أنت ، قصى عليهم ما يحلو لك قولى لهم أنه عشيقك ، وإلا شنقونا جميعا .. لاننا ساعدناه .

ولكنهم رفضوا المبلغ المقترح للرشوة ، لأنهم يعرفون أنه كان أمين صندوق الكتيبة ، ويبحثون عن صندوق الأموال وعادت (ايفت) للأم تخبرها بذلك ، وتحثها على أن تزيد من قيمة الرشوة



الأم .. وقلوب الأدباء



الأم ..

تلك الكلمة الخالدة المشحونة بكل العواطف الإنسانية ، وبكل الحب وبكل الأمل كيف عبر عنها كبار كتابنا ومفكرينا ، وماهى رسائلهم إلى أمهاتهم؟.. وماذا يقولون عن الأم ..؟ إن كل واحد منا له قصة مع أمه .. لكن هؤلاء الأدباء الكبار ، والمفكرين ، والمشهورين عندهم القدرة على التعبير ،عن احساساتهم بحيث تكاد تترجم الكثير من مشاعر الآخرين تجاه أمهاتهم .

وفى مكتب أديبنا الكبير توفيق الحكيم « بالأهرام » التقيت به لأعرف ماذا كتب من رسائل إلى أمه الكريمة . وكان موجودا فى تلك اللحظة الدكتور حسين فوزى ، والروائى الكبير نجيب محفوظ والشاعر الفنان صلاح عبد الصبور واستنجد بهم الحكيم ، لكيلا يتحدث عن أمه ، قائلا :

— انني لا يمكن أن أتحدث عن أمي . . انها من مقدساتي . . قد أكتب كلمة تغضبها أولا تعجبها أرجو أن أبتعد عن الحديث عن أمي .. انني لم أكتب إليها أية رسالة . . أستطيع أن أكتب عن أبي . . عن أي شيء . . الا عن الأم .

وقال صلاح عبد الصبور . كيف يمكن لنا أن نتحدث عن أمهاتنا . . انني أتفق مع رأي استاذنا الحكيم . قلت : إن هناك كثيرا من الأدباء قد عبروا عن مشاعرهم تجاه أمهاتهم في رسائل .. كلمات مليئة بكل الحب . . الحنان الذكريات عن أمهاتهم . . ليس هناك أي داع . . لعدم التحدث عن الأم . حقيقة أن الرجل العربي أيام الجاهلية ، كان يحب أمه حب عبادة ، ومع ذلك لا يجسر أن يعبر عن حبه ، وتقديره . . في عمل فني كبير . في قصيدة أو ملحمة . كان هذا هو السبب في خلو أدبنا القديم من هذا اللون من التعبير . بل كان الشعراء يتخذون من مشاهد الأمومة عند الحيوان مجالا للتعبير الجميل عن هذه العاطفة . . عاطفة الأمومة .

وقال نجيب محفوظ :

إنني لا أتذكر أني أرسلت رسالة إلى أمي . . لم أكتب إليها في حياتي رسالة . . وإن كنت قد عبرت عن نماذج مختلفة من الأم في رواياتي . .

وسكتنا لحظات ثم تشعب الحديث في مختلف المجالات ، إلى أن عدت إلى الحديث عن الأم ، ورؤيتها الخاصة لأبنائها ، مهما عظم

شأنهم ، وعندئذ انطلق الدكتور حسين فوزى من صمته ، وترك « البايب » جانبا ، تحدث عن موقف يذكره لأمه معه قائلا :

أتذكر هذا الموقف عندما كنت وكيلا لوزارة الثقافة ، كنا مهتمين بتكوين فرقة البالية وكانت والدتى تجلس أمام الراديو تستمع إلى خطبة صلاة الجمعة فى حجرتها الخاصة . . قبل أن تصلى الجمعة وذات يوم جمعة واستمعت إلى الخطيب . . وكان يهاجم فكرة الرقص ، وأحست أنه يهاجمنى وبعد أن انتهت من صلاتها ، قدمت إلى . . وقالت لى . . وهى شبه غاضبة . .

« إيه الكلام دا ياولد . . . » .

وضحكت جدا . . لأنها ما زالت تعتبرنى « ولدا » وقد جاوزت الخمسين . لقد كانت نظرتها إلى غريبة . . مثل كل أم كما أعتقد فبين الحين والحين كانت تخرج لى « صديرى » « صغيرا جدا جداً وتخبرنى بأنه كان أول شىء ارتديته عندما كبرت قليلا . وكنت أتعجب من شكل الصديرى أنه صغير جدا . . جدا . . بحيث لا يمكن أن يكون للعبة صغيرة . وكان هذا الصديرى هو من أعز الأشياء لديها . وحتى بعد أن جاوزت الخمسين كانت لا ترانى . . إلا فى صورة هذا . . « الصديرى جدا » ولا تعترف بأننى قد كبرت .

وعندئذ ضحك توفيق الحكيم ، وقال له « لماذا تقول هذا

الكلام أنه سيكتب هذا » وابتسم حسين فوزى . وقال « هذا ما أذكره عن والدتى » .

وأكثر من مرة حاولت فيها أن ألتقى فيها بوالدة الكاتب الكبير أنيس منصور ولكن كثرة مشغولياته فى الجريدة ، أخر موعد اللقاء مرة ، ومرة ، إلى أن مرضت والدته ، واحتبست الدموع فى عينيه وذاب ليله فى نهاره . ولم يستطع أن يقنع نفسه — . ولم يستطع أن يقنع نفسه — وهو الذى لا يعجز أبدا عن إقناع الآخرين بعكس ما يعتقدون — بأن الموت حق ، وبأن كل عزيز لابد له من — لحظة فراق ، وما أقساها من لحظة . . إنها أشد لهيبا من عذاب الجحيم ، وفى فترة مرض أمه الأخيرة تبخرت من ذهنه كل حجج المنطق ، وذابت الفلسفة أيضا . وتاهت الابتسامة من شفتيه ، وكان يتعذب أكثر وأكثر ، عند ما كان يكتب مقالاته ، وأفكاره ، وهو يكتم ألم النزيف فى قلبه لأنه كان يحب أمه كل الحب . . ولم يحب سواها . لأنها النبع الأصيل الذى ارتشف منه رحيق الحب الخالص . وهى الوحيدة فى العالم ، التى تشعره بالنقاء والصفاء عندما يجلس إليها ، ويحس بأنه قد عاد صغيرا . . صغير الحلم بلمسة حنان صادقة ، بعيدا عن كل زيف ، ومنفعة .

ولم يجد بدا من أن يعتذر للقارىء الذى لا يرحم أى كاتب فى أن يكتب شيئا خاصا ، ولكنه يمس كل القلوب . . وكانت

هذه الكلمات التى نشرها فى « مواقف » ١٩ يوليو سنة ١٩٧١ ، تعبيرا صادقا عن النزيف المستمر داخل قلبه :

« أيها القارىء العزيز . . لا أحرق الله لك جفنا ولا أدمع لك عينا ، ولا أوجع لك قلبا ، ولا بدد لك عقلا ، ولا أذاب ليلك فى نهارك ولا أراك مكروها فى عزيز لديك : فى أم أو ابنة ، أو زوجة ، أو أخت . . فانه لشىء فظيع أن يجد الانسان نفسه عاجزا لا يملك إلا دمعة العين وزفرة القلب . . إلا الحب . . وإلا الدعاء وإلا التطلع إلى السماء . . وإلا هذه العبارة التى يضربها فى السقف فترتد إليه . . اللهم رحمتك .

وإلا الشعور بالخجل . . فإن الانسان لا يذكر الله إلا قليلا . . وإلا فى هذه المناسبات الاليمة . مع أنه يجب أن يذكر الله كثيرا لانه اعطاه الصحة ، واعطاه القدرة على أن يبكى على غيره ، وعلى أن يكون بجواره ، وعلى أن يكون نافعا وعلى أن جمله قادرا على مصادقة الناس . . فلولا أصدقاء كبار بارعون من الأطباء ما كانت هذه حال أمى ، لا كان مرضها ، ولا كان علاجها وشفاؤها ان شاء الله

ولكن هذه الدموع مهما كانت ومهما كثرت . لا تساوى قطرة واحدة من سائل الجلوكوز ، أو قطرة دم من بنك الدم . . وأن قلبى مهما علا وهبط ، ومهما اتسع وضاق لا يساوى ابرة دواء بقدر ما يشعر الانسان بالخوف أو بقدر ما يتحول هو إلى كتلة من

الخوف والقلق والحنان أيضا ، بقدر مايشعر بالقسوة فى حكمه على الأطباء مالهم هكذا لا يهتزون لا يتحركون لا يتوجعون . . لماذا أعصابهم هكذا قاسية . . مالهم لا ينظرون إلى السقف الذى مسحته ذهابا وايابا . . انهم يقرءون شيئا لا نعرفه على الأرض ومن الغريب أنه مكتوب بحروف لاتينية واضحة . . لا يراها أحد سواهم .

فلا أراك الله ، ولا أرانا مكروها فى عزيز لديك . . فى أعز عزيز لديك :

أمك . .

وأمى . .

. . التى كانت حياتى عذابها ، فأصبح عذابها حياتى » .

وتوفيت الأم .

وكانت مشاهد الجنازة ، وما أتبعها من أحداث ، أليمة . خاصة عندما يغيب الجثمان فى القبر . واجهش كل الذين شهدوا المنظر بالبكاء الحار . وفى المنزل أخذنى أنيس إلى حجرة والدته قائلا والعبرات تخنق صوته «كنت تريد أن تقابلها . . وأن تراها . هذه هى أمى . ، وأشار إلى صورتها المعلقة على الحائط . وخرج بينما وقفت أنا أمام الصورة ، وقد أحسست فعلا أنها كانت هى سر النجاح العظيم فى حياة أنيس منصور .

ولأول مرة يكتب كلمة اهداء فى كتابه الخامس والأربعين « أطيب تحياتى من موسكو

قائلا : « لعله اهداء

إلى التى لم تقرأ ، ولن تقرأ سطرا واحدا مما أكتب ، فهى لم تتعلم القراءة والكتابة ثم انها قد ماتت ، رحمها الله . . من عذاب القراءة ، ومن عناء الكتابة ومن الحياة . .

. . إلى أمى ! »

. . وهناك أيضا رسالة إلى الأم .. التى لن تقرأها كتبها الكاتب الكبير رشدى صالح فى مارس سنة ١٩٧١ . تحت عنوان « رسالة إلى السيدة العجوز » . ولم يقل رسالة إلى « أمى » . واتخذ من رسالته دعوة إلى الاهتمام بعيد الأم فى قرانا ، لأن الحياة فى قرانا . . هى أقداس للأمومة والناس هناك فى القرى البعيدة لايعرفون أعياد الأم ، وإذا سمعوا عنها كانت عندهم شيئا يخص أهل المدينة . ومباهج هذه الأعياد من حق كل أم فى قرانا فيقول رشدى صالح فى رسالته :

« أعرف أنها لن تقرأ هذه الكلمات ، فهى فى مكانها بالقرية البعيدة ، لم تتعلم كيف تفك الحروف ، ولكنى أبعث الرسالة إليها . فمن حقها أن يتكلم معها حامل هذا القلم ولو مرة واحدة بالكلمة المطبوعة .

ذات لحظة مظلمة تماما قالت له وهو طفل صغير :

— ستتعلم بالرغم من كل ألم ومشقة.

وكانت وحدها التي تقف بجواره ، مرفوعة الرأس تحاصر بيديها متاعب الحياة ، وما أكثرها .

كانت حياتها قاسية ، وكانت عزيمتها أقوى من كل قسوة وجدب .

وقرأ الطفل ما قرأ ، وقلبه يحدثه حديث أمه :

— لابد لك من أن تتعلم وتتخرج فى الجامعة .

وكان طريق الآلام والمتاعب طويلا ، ويوم أصيبت بجراح ، كان يدعو الله أن يضمد جراحها ، بخفقات قلبه ولم يزل يتمنى أن يستثنيها قانون الميلاد والحياة . فتعيش أطول عمر يشاؤه الله .

لو استطاع أن يكتب رواية عنها ، لتقرأها وحدها ، لهجر كل شيء فى سبيل أن تقرأ كلماته ، لكن الزمن لم يسمح لها بأن تكون قارئة تظن لحبها الشديد أن كل ما تكتبه الصحف هو إنشاء ابنها ، مع أنه رجل يعبر طريق الكلمات لا أكثر ولا أقل . تسمع صوته أحيانا يأتيها من المذياع ، فتذكر أيامها بسماعها هذا الصوت. تلقاه فتدعو له بحنان أم لم ينفصل عنها طفلها الرضيع ، يقول لها مشفقا .

— بعض هذا الحنان كيفيه ، فقد بلغ الخمسين وزيادة لكنها لا تريد أن تصدق .

فى عيد الأم بالمدن يحمل الأبناء الهدايا إلى امهاتهم ، ويشعر بأنه

غريب ، فى هذه المدينة الكبيرة ولعله يقول لاحبائه الصغار من حوله :

— وحدى أنا الغريب !!

وفى قلبه شجن يعرفه الذين تركوا وراءهم أمهات كهذه السيدة العجوز فى قرانا تصبح أقداسا للأمومة ، وترسلها فى ضمير الكلمات وصلب الحياة كل يوم . ولكن الناس هناك لا يعرفون أعياد اليوم ، وإذا سمعوا عنها كانت عندهم شيئا يخص أهل المدينة ومباهج هذه الأعياد من حق كل أم فى قرانا . . لكن كيف السبيل اذن ؟ . . ومتى يمتد هذا العيد إلى حيث تعيش السيدة العجوز التى لن تقرأ هذه السطور ! . .





الأم في رسائل

الأم فى رسائل

وهناك رسائل كثيرة ، وكلمات أكثر عن « الأم » ، لا تسعها المجلدات والموسوعات ، ومع ذلك فلا تزال المكتبة العربية فى حاجة شديدة إلى مثل هذه الكتب ، وقد جمعت السيدة زينات الجداوى ، بعض تلك الرسائل ومن استعراضنا لها ، يمكننا أن نلقى مزيداً من الأضواء على الوجوه المشرقة للحب ، والحنان ، والتضحية ، والسمو ، والعطاء .. للأم فى أى مكان وفى أى زمان ..

فى عام ١٩٥٧ ، كتب الأديب الكبير إحسان عبد القدوس آخر خطابا تسلمته والدته فى حياتها ، عندما كان يعالج فى سويسرا قال :

أكتب إليك وأنا جالس فى شرفة الفندق ، وبحيرة « لوجانو » تحت قدمى وجبل على يمينى ، وجبل آخر على يسارى ، وبين أحضانى أشجار رائعة طرزها الخريف باللون الأحمر والأصفر والأخضر . ولكنى فى هذه اللحظة لا أرى البحيرة ولا الجبال ، ولا الأشجار

ولا الخريف . . أراك أنت وحدك . . أراك فى قلبى وفى مخيلتى ، وفى عينى . . أراك جميلة عظيمة . . أجمل وأعظم من كل ما فى أوروبا . . إن الله لم يخلق شيئا أجمل من أمى . . ولا أعظم من أمى . . » .

ويقول أيضا :

« انك لا تدرين كم يسعد الانسان ويزهو عند ما ينطق لفظ « أمى » وربما أكون فاشلا فى اظهار حبى لك ، لكنى لا أظن أنك شككت يوما فى هذا الحب . لا أظن أن اهمالى فى تدليلك قد جعلك تشكين فى حبى . . لا أظن . . فأنت أدرى الناس بأنى أعمل وأكتب ، وأتعذب ، وأحكم طبيعتى المهملة المنطلقة ، لا لشىء إلا لأنى أحبك ! ! »

يقول إحسان بعد ذلك ، معلقا على هذا الخطاب بعد أن عاد . لقد فرحت أمى بهذا الخطاب . . فرحت به أكثر من كل ما كتبته . . كأنها تلقت أول خطاب غرام . . دارت على كل زملائى تبلغهم أنى أرسلت لها خطابا . . دون أن تطلعهم عليه وعندما عدت لم تحدثنى عن خطابى . . وأنا رأيت على وجهها لمسة الحياء الجميل والتواضع . . كأنها تلتقى بحبيبها بعد أن عاد .

أما الأديب الكبير يوسف السباعى ، فحين كتب أول رسالة إلى أمه قال فيها :

« أكتب إليك وأنا حائر عاجز . . لست أدرى ماذا أقول

وكيف أحدثك وأنا أحب دائما أن أرضيك . . وأن أبعد عنك كل ما يؤلمك وما يغضبك ولكن وسيلتى فى إرضائك . كانت دائما عملا . . وليست قولا ، فأنا مقل فى حديثى إليك . أخجل من أن أجلس إليك ، لأعبر لك عن مشاعرى نحوك أيا كان نوعها . ولا يضايقنى شىء كحزنك . . يضايقنى . . إلى حد يجعلنى أقسو فى لومك على حزن لست أجد ما يبرره .

والشاعر الكبير صالح جودت . . حين كتب رسالة إلى أمه ، كشف نواحى كثيره عن أمه كمربية ، لها أسلوب خاص . القسوة والنصيحة والصداقة ، فقد كانت أمه تركية لا تعرف الهزار ، فكانت توثقه بحبل فى عمود السرير ، وتنهال عليه ضربا بكرباج سودانى عتيد ذى لسانين وعند ماكان يذهب إلى المدرسة ، تقول له ذات يوم .

— لاتنس حينما تصل إلى المدرسة ، أن تبلغ تحياتى إلى حضرة الناظر . فيطيعها ، ويذهب إلى الناظر فورا ، ولكنه لاحظ أن الناظر يحتجزه فى آخر كل نهار يبلغه فيه تحياته الأم . ويمده على عصا غليظة ويضربه علقة دافئة بالفلقة .

وكانت تدفعه إلى أن يصبح شيئا فى الحياة . وبعد أن تخرج فى الجامعة أصبحت صديقة له . وتحدثه ويحدثها فى كل شىء . فيقول فى رسالته :

وهممت بالزواج ، وقلت لها اننى سأتزوج فلانه بنت فلان ،

فتعالى معى أصرت على الرفض ، وقالت لى : إذهب أنت وحدك فإنك أنت الذى ستتزوج لا أنا . ويجب أن تتحمل تبعة اختيارك لنفسك ، فلا تشركنى فى هذه التبعة . كل ما أدعو به لك هو التوفيق . رحم الله أمى ، لقدكانت من ذلك الأنموذج الطيب من سيدات الجيل الماضى ، ذوات البصيرة المشرقة التى تفضل جميع الطرق التربوية التى يضعها العلماء المحدثون » .

ويقول الناقد الفنى عبد الفتاح البارودى :

عندما أدخل الآن مختلف المعاهد الفنية لأدرس لتلاميذى أوبريتات سيد درويش .. فإننى أتذكر فى كل محاضرة أن أمى هى التى علمتنى ألحان سيد درويش . وعندما أكتب كل يوم وأؤكد كل يوم أن النقد « أرسطو » وأن الفن « دراما » ونضال ودعوة للنضال ، فإننى اتذكر فى كل كلمة أن أمى هى التى علمتنى النضال .. وعند ما أهاجم الأدعياء والجهلاء . . إلخ فى كل ما اكتبه أو أقوله فاننى اتذكر فى كل لحظة أن أمى هى التى علمتنى كيف أعيش حياتى كلها طالبا للعلم والفن والمعرفة وداعيا إلى العلم والفن والمعرفة ، وعدوا لأدعياء العلم والفن والمعرفة ..

هل معنى ذلك أن أمى كانت فنانة مسرحية أو سوبرانو أو استاذة جامعية . . إلخ .

أبداً .. لقد كانت رحمها الله أمية لا تقرأ ولاتكتب ولا تعرف الفرق بين باب المسرح وبوابة المتولى .. فقد كانت مكافحة ، وكانت تريدنى أن أكافح حتى أكون كل شيء وأعظم شيء ..

أعظم من أى « أفندى » فى حى السيدة زينب حيث نشأنا ولا نزال .. وأعظم من أى « جدع » » فى « البغالة » حيث كان بيتنا ولايزال .. وأعظم من أى « استاذة » من الأساتذة الذين يترددون على بيوت الأدباء والفنانين والعلماء المجاورة لبيتنا ولاتزال .

— ويقول الفنان الشاعر فاروق شوشة :

عندما زار بيت العائلة فى القرية لأول مرة بعد وفاة والدته ، فى قصيدته الرائعة بعنوان « الزيارة » منها هذه الأبيات ..

الصوت صوتها ..
ورف طائر على قلوبنا ..
وغامت العيون بالسلام ..
واهتز شوق عاصف طويل ..
يذيبنا كقطرة الشموع ..
ياأيها القادم من ديارنا ..
كأنما تجىء بعد ألف عام ..
لاصمت فى عيوننا .. ولادموع ..
فلتسترح على جفوننا ..
ياوجه طيفها النبيل ..

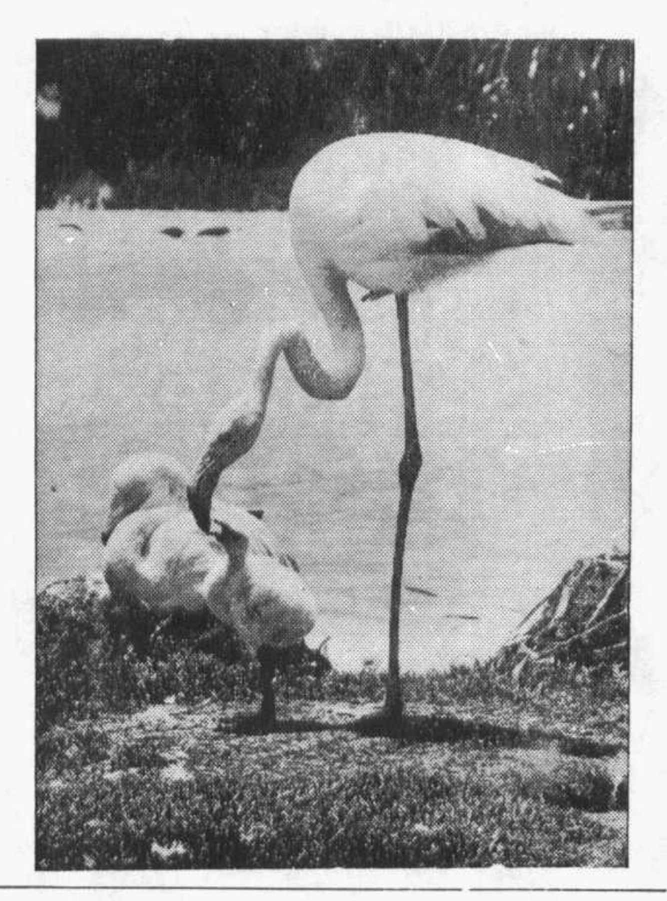
ياصوت حزننا الجليل ..
لم يبق غير أن تزورنا ..
ياضوءنا اليتيم فى القتام ..
ياأنت . يامصيرنا ..

— يقول الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب :

لقد ألفت أمى رسائلى . إنها لا تتصور أن ترانى أبا ورب أسرة ، وصاحب رسالة . إنها لا تتصورنى إلا ذلك الطفل « العفريت » وانا لا أحب أن أكون إلا ذلك « العفريت » فى حضرتها ، وعلى صدرها ، وبين يديها . إن رسائلى إلى أمى لاتصدر منى طفلا كبيراً .. بل طفلا صغيراً صغيراً أمام أكبر قلب .. وأحلى حب » .

— كتب الفيلسوف الفرعونى آنى إلى ابنه :

« ابنى .. لا تنس مافعلته أمك من أجلك أنت وحدك فكل ما صنعته لك كان عظيماً . . لاتحاول أن تنساه أنها تستطيع أن ترفع نظرها إلى السماء ، وتدعو لك أو عليك .. والخالق سيستجيب لها فوراً .



تصوير : احمد سالم

الأم .. وعالم غريب

الأم .. وعالم غريب

قصص.. وحكايات أشد غرابة مما كنا نتصور، بل هناك بعض الأفعال التى تقوم بها الحيوانات أو الحشرات ، أو الأسماك .. أثناء ممارستها لأمومتها .. مازلنا فى حاجة إلى تفسير علمى لهذه الأفعال . بل اننا فى بعض الأحيان نطلق بعض التشبيهات على بعض الأمهات .. كأن نقول مثلا .. أنها أم كالعقربة ، أو أنها أم كالدبة .. وغيرها من التشبيهات.. فما معنى ذلك ؟ وهل هناك فى دنيا الحيوان .. أمومة حقيقية ، وتضحية ، وحنان ورعاية للصغار؟ .

وقد قام بعض العلماء باجراء عدة تجارب على أنثى الحيوان . وخاصة الأم . فوضعوا أمامها غذاءها بعد أن قاموا بتجويعها ، وأقاموا حواجز مختلفة . مثل عائق فى الطريق من النيران أو الأشواك ، أو مساحة من الماء .. أو غيرها من العوائق ، فلاحظوا

أنها كانت تتردد فى أغلب الأحيان ، وكانت تستكين وترضى بالجوع . أما إذا وضعوا صغيرها أمامها ، وظل يصرخ يناديها ويستغيث بها ، وأقاموا أى نوع من أنواع الحواجز المهلكة لها أحيانا .. فان الأم لاتتوانى لحظة فى الاندفاع ، مهما كلفها هذا ...

ولو حياتها .. لكى تنطلق إلى صغيرها ، لتحميه . وهذه تجربة وهناك مئات التجارب العلمية فى دنيا الحيوان والحشرات تثبت وجود عاطفة رمومة العارمة عند الحيوانات. بل أن دوائر المعارف ، والموسوعات العلمية ، والكتب العلمية المتخصصة تضم عشرات الأمثلة المختلفة عن مواقف التضيحة التى تقوم بها الأم .. فى هذه الدنيا العجيبة .... الغريبة .. الغامضة .. دنيا الحيوان .

هناك نوع من ذكور اللافقريات يأكل البيض ، مثل أم أربعة وأربعين والحيوانات ذات المائة رجل .. فعندما يلمح الذكر الأنثى وقد حملت بيضها بين مخلبيها فإنه يهجم عليها ويلتهم البيض .. فماذا تفعل الأم فى تلك اللحظة .. وهى ضعيفة ، لاتقوى على مصارعته . فتلجأ إلى الخداع والحيلة ، فتدحرج بيضها بعد وضعه مباشرة على الأرض ، ليختلط بالتراب ، ويلتصق به بفضل مادة لزجة تحيط بالبيضة فيصبح البيض فى النهاية مثل لون الأرض ، فلا يميزه الذكر ، ولايعرف طريقه .

لكن مايحدث لأنثى العقرب يختلف كل الاختلاف عن الأم

فى اللافقريات فهى « عقربة » بمعنى . . أنها عندما ينتهى حفل الزواج ، والرقص ، والمداعبة تنقلب فجأة وبصورة شرسة ، وتهجم على الذكر لتقتله ، فيهرب وتظل تطارده .. وفى أغلب الأحيان تتمكن من قتله .. وفى حالات نادرة يفلت فيها الذكر . ويعلل العلماء هذا التصرف ، بأن العقربة عندما تحس بأول لحظة عند الزواج وعند حملها ، بأنها لابد أن تحمى صغارها . وتخاف عليها ، وأول شيء تضحى به فى سبيلها .. أن تقتل الأب خشية أن يقتلها .. وعندما تلد أطفالها تحملها على ظهرها ، حتى يشتد عودها ، وتقوى على أن تحيا بمفردها .. والعقربة فى تلك الفترة ، تكون شرسة جداً ، وحذرة جداً من أجل أولادها لتحميها من أى خطر .

أما أنثى الدب .. فعندما تلد ، تحاول بقدر الإمكان أن تخفى وليدها عن العيون ، وبعد تجارب كثيرة قام بها العلماء عن السبب فى أن « الدبة » تأكل أطفالها فى بعض الحالات ، فاكتشفوا أن الأم عندما تلد ، تخفى وليدها فى مكان مظلم جداً ، وإذا رأت شعاعاً من الضوء قد وصل إلى وليدها فانها تأكله لتخفيه فى بطنها . وهى لاتدرى أنها قد أخفته إلى الأبد . فهذا الحب .. أو الخوف والحرص من الأم « الدبة » يعتبر من أخطر أنواع الحب الأمومى الذى يؤدى إلى الموت .. من شدة الحب العارم ، والخوف على وليدها .

ونرى أيضا .. ألوانا مختلفة من رعاية الأم ، وحنانها عند أنثى الكونجارو ، فقد وهبتها الطبيعة ، كيسا خاصا ، يعيش فيه الوليد ، حتى يقوى ، ويشتد عوده . إنه حضن دافىء .. ملىء بالحنان .. وعندما يشعر الوليد بالخطر .. فإنه يهرع بسرعة إلى هذا الكيس ، وعندئذ تنطلق به أمه هاربة من مكان الخطر إلى مأوى أمين .

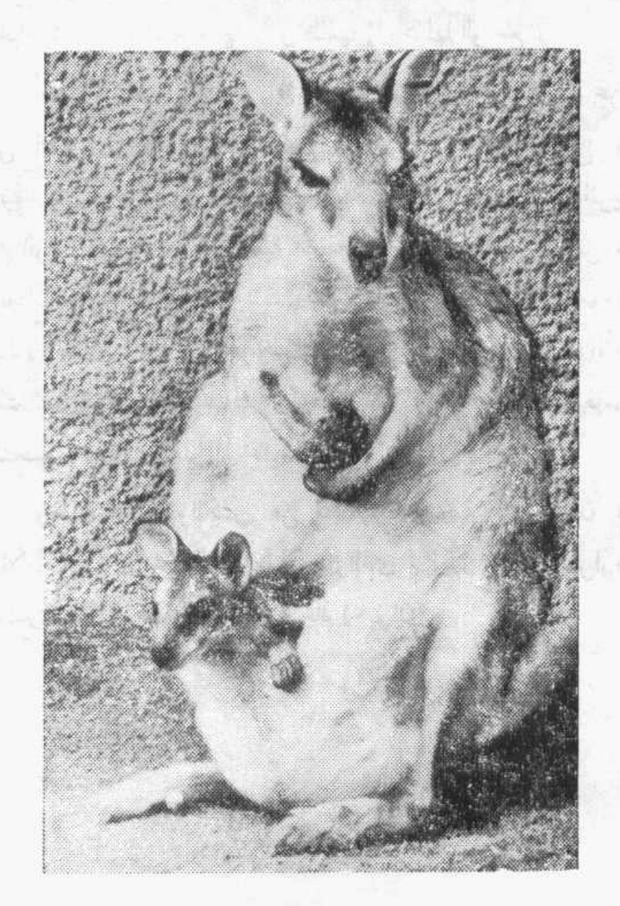
أما بالنسبة للطيور ، فقد زودت الطبيعة ذكر « البنجوين » بجيب أسفل البطن ، ليضع فيه البيضة التى تعطيها له الأم . فيحتفظ بها حتى يتم الفقس . والسبب فى ذلك أن الأم ضعيفة ، وليست لديها القوة مثل الذكر ، فهى تعطيه البيضة ، ليحتفظ بها فى هذا المكان الأمين ، وهو قادر على حماية الوليد من أى خطر . أما هى أى أنثى البنجوين ، فهى تساعد ذكرها فى إحضار طعامه ، حتى لايتعب ، ويكفيه أنه يحافظ على وليدها من أى خطر .

والأم « البلطية » .. لها حكاية غريبة مع أولادها .. حتى أن الناس يقولون أن البلطى يبخ أولاده من فمه » . وهذه الحكاية تقوم فيها الأم « البلطية » بدور كبير فى رعاية صغارها . فهى تحفر حفرة صغيرة فى قاع نهر النيل ، وتضع بيضها الذى يخصبه الذكر ، بعد ذلك تضع هذا البيض الملقح فى فمها الذى يمكن أن يتسع من ٢٠٠ إلى ٨٠٠ بيضة حسب حجم الأم وسعة الفم) . وبذلك أصبح فم « الأم البلطية » هو المكان المناسب الذى تستطيع أن تحتفظ فيه بأطفالها ، وهى إذ تدافع عنها أى خطر ، فإنما

تدافع عن حياتها وكيانها . وبعد أن تحس بأن أولادها قادرة على الحياة بدونها .. تفتح فمها .. وتطلقها إلى عالمها الواسع .

أما الأم عند التماسيح .. فإنها تضع البيض فى مكان بعيد عن عن العيون والخطر وأحيانا تبنى عشا من الأوراق والأفرع ، وتبقى بجانبه تحرسه . والأم التمساح فى النيل تصنع عشا دائريا من الرمل عمقه قدمان بأرضية مرتفعة ثم تضع طبقة من البيض ، وتغطيها بالرمال وهكذا، وأثبتت تجارب العلماء أن عاطفة الأمومة عند« أم التمساح » من العواطف القوية العنيفة . فإذا سمعت الأم استغاثة أطفالها وكان هناك أى حائل بينها وبين صغارها ، فإنها تقتحمه ولو أدى هذا إلى موتها .

وهناك الكثير والكثير من قصص التضحية ، والحنان ، والأمومه .. فى هذا العالم جدا .. والذى لم نكشف عن أسراره الكثير أيضا .. هذا العالم .. هو عالم الحيوان .

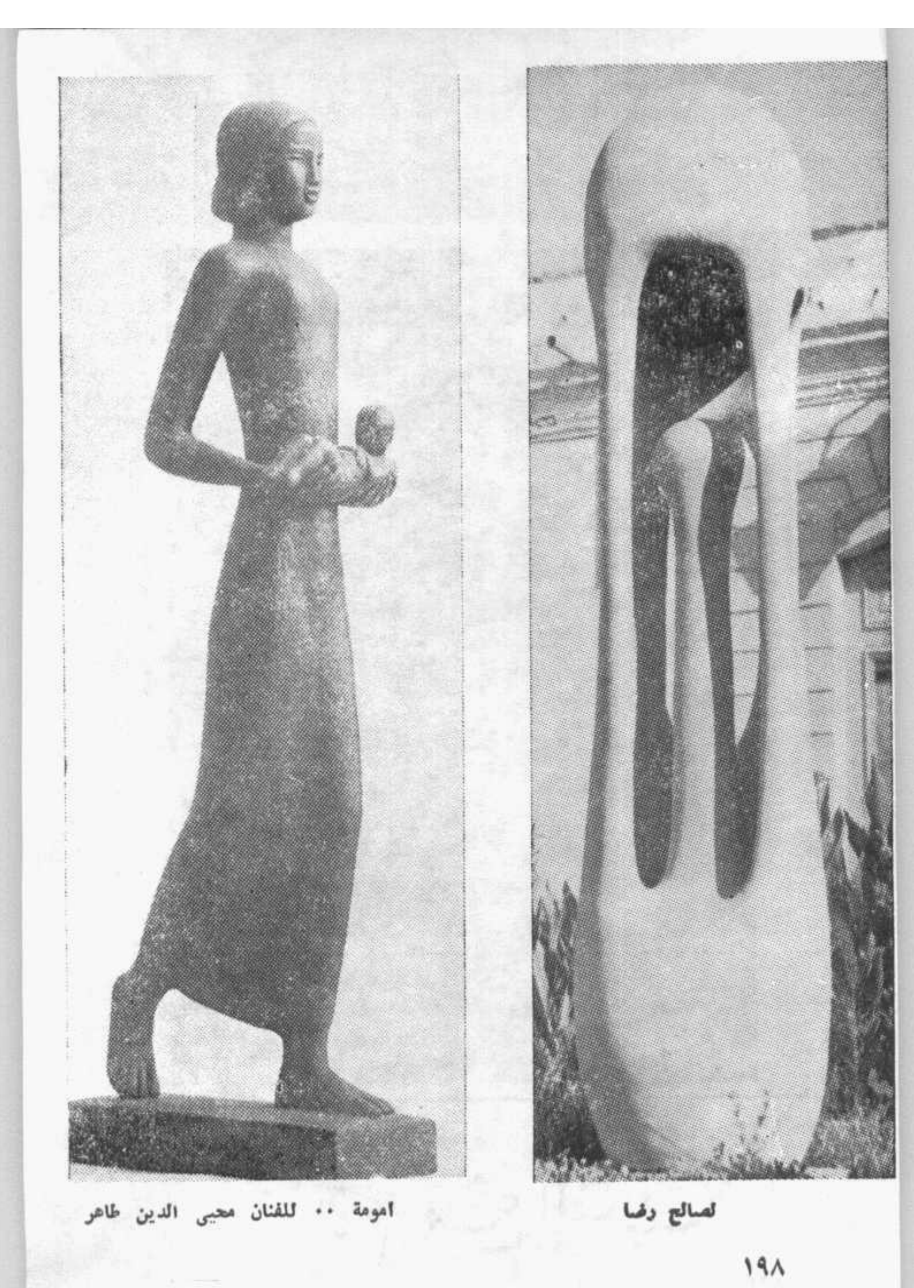


ما اجمل حضن الأم

تصوير : احمد سالم



الأم مع الفن



لصالح رضا

أمومة .. للفنان محيى الدين طاهر

الأم مع الفن

والأم لها مع الفن والفنانين والمصورين حكايات .. وحكايات فهى النبع الأصيل الذى يغمس . فيه الفنان ريشته .. ليبدع لنا أجمل الخطوط ، والتشكيلات ، فى لوحات فنية خالدة فكيف عبر الفنان طوال العصور المختلفة عن هذه العاطفة .. عاطفة الأمومة .

والصور الفنية المنشورة فى هذا الكتاب والتى تضم عشرات اللوحات لكبار الفنانين فى العالم وفى مصر .. لها قصة طريفة ، بدأت عندما كنت جالسا مع الأستاذ أمين عدلى ، وقد وعدنى باحضار صورة فنية جميلة عن الأمومة ، كانت منشورة فى إحدى المجلات الأجنبية . ولكنه اعتذر ، واقترح فكرة أن ننشر فى الكتاب مجموعة من اللوحات التى رسمها كبار فنانينا فى مصر عن الأم .. والأمومة وسافرت إلى الاسكندرية لالتقى بالفنان العالمى سيف وانلى .. الذى سهر ليلة كاملة بين المئات من لوحاته وأوراقه ، لكى يعثر على لوحته الفنية الرائعة وقد كانت هذه

اللوحة بباريس سنة ١٩٦٧ .. وهذه اللوحة الفنية استخدم فيها سيف وانلى اللون البنى الدافىء بكل تدريجاته ، وإيحاءاته المشبعة بدفء عاطفة الأمومة .

وعندما علم بعض الأصدقاء الفنانين بموضوع الكتاب ساهموا بكل مالديهم من صور ولوحات لتكون بين يدى القراء . وتوافرت لدى مجموعة كبيرة من اللوحات الفنية ، وخاصة تلك الصورة الرائعة التى صورها أحمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم وهى « ياحبة عينى » . فقد بذل فيها جهداً فنيا مضنيا لكى يقوم بتركيب مجموعة من الصور فى هذه الصورة الكبيرة . ثم وجدت أن تعبير الفنان عن الأمومة . ليس مقصورا على العصر الحديث فرجعت إلى عشرات الكتب الفنية ، والمراجع والموسوعات ، والمجلات الفنية المتخصصة بل والأرشيف الخاص بالفن فى دور صحفنا ، وفى كليات الفنون الجميلة إلى أن عثرت على تلك الصور واللوحات والتماثيل .. منذ أيام الفراعنة ، والعرب وفى عصر النهضة . وقد لوحظ أن أعظم الفنانين قد صور الأم .. فى بداية التعبير المشار عن الأمومة والمباشر .. تجسيداً للعذراء وأبدع فيها عدد كبير منهم ، وقد تخصص الرسام « ب » بانونس ، فى لوحاته المشهورة عن الأسرة المقدسة . ثم تطور التعبير عن الأم ، والأمومة ، فى لوحات الفنانين .. مثل رافائيل و « رومنى » و « روبنز » ومدام « فيجيية »

لوبران و « جاك بلانشار » والفنان الإنجليزى « نيولدز » و « ك . البيكوكو وغيرهم . إلى تصوير الأم العادية من الحياة وليس تصويرا « للعذراء وابنها » فكانت معظم تلك اللوحات تعبيراً شفافا عن هذه الإحساسات والمشاعر التى يضمها قلب الأم . فنرى أن هذه اللوحات تصور مواقف أم وهى تحتضن ابنها فى أوضاع بسيطة ، عادية .

وجاء فنانون آخرون ، استخدموا الأمومة وخاصة فى العصر الحديث للتعبير عن أزمة الإنسان المعاصر ، تجاه مأساة الضمير الإنسانى مثل لوحات الفنان الفيتنامى « نانابى » كان تكون الأم مدرسة .. وفى لوحة .. « حامد عويس » الأم مدرسة إذا اعددتها .. اعددت شعبا طيب الاعراق . وابدعت أيضا الفنانة العالمية « مارى كاسات » فى تخصيص عدد ليس بالقليل عن مختلف زوايا التعبير عن الأمومة ، وصور صلاح طاهر الأم الفلاحة فى ألوان هادئة مليئة بوادعة الريف ، المنعكسة على قسمات وجه الأم ، وهى تحمل طفلها ، وفوق رأسها ، « قفه » وهى ذاهبه لبيع البيض فى السوق . ومن أروع التعبيرات عن الأم والأمومة ، ذلك التمثال الذى نحته الفنان الكبير .. عبد العزيز جاويش ، إذ صور بكل دقة وبراعة احدى الأمهات وهى تعانى بكل خلجة من خلجات نفسها ، آلام الخوف من الدمار ، وشرور الحرب . فلا تجد وسيلة لكى تحمى بها ابنها ، إلا أن تحاول أن

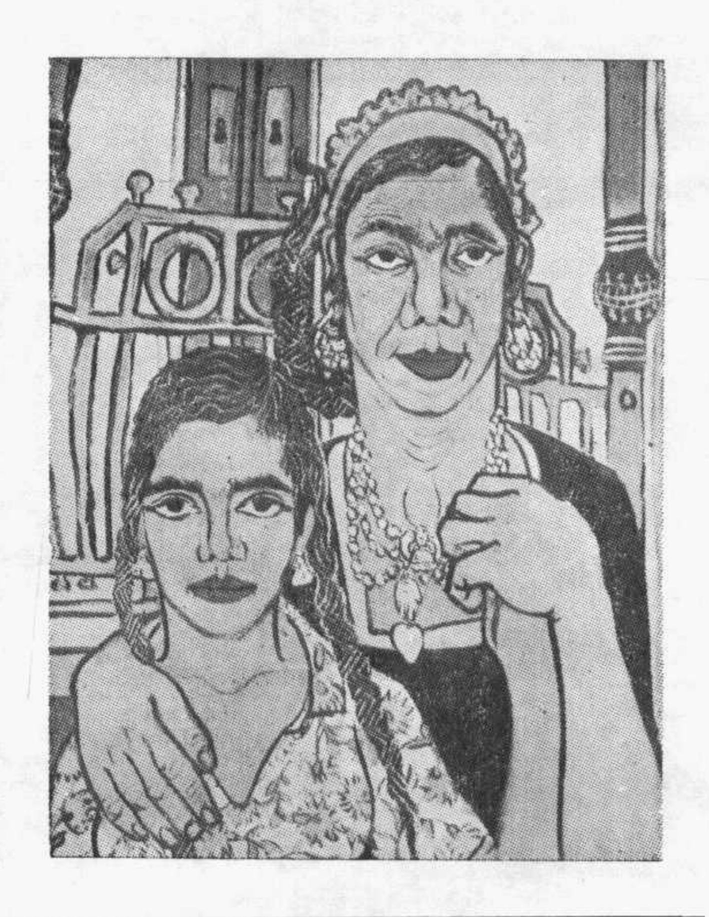
تعيده إلى بطنها مرة أخرى . لأن هذا العالم المجنون . الذى يرقص على حافة الفناء قد فقد روعة الحب ، وتاه الأمل .. فى أن يجد الإنسان المسكين نفسه فى هذه اللعبة الخطرة . لعبة الحرب .. التى لاتقضى على الانسان فقط .. بل تقضى كل على ماهو جميل . وهذه اللعبة تفقد الإنسان القدرة على أن يرى الحياة ، كما ينبغى أن يراها .. وقد ملئت بالحب ، والحنان والكلمة الحلوة ، والصدر الدافىء ، والنظرة الحنون ، والعيون المعبرة .

وهناك الكثير .. والكثير من مئات اللوحات والصور ، والتماثيل تعبر عن الأمومة ، ليس فى صورتها المجردة ، وإنما فى مواقفها من الحياة الشاقة التى نعيشها .. فى عصر الصواريخ والقنابل الهيدروجينية . وهذه الصور بكل ما تحمل من معانى الدفء .. والتضحية والعطاء .. تؤكد لنا أن الحياة بدون الحب .. هى العدم . فالحياة هى الحب .. والحب فقط ؟؟



للفنان ك . البيكوكو





للفنانة جاذبية سرى

تلميذة بالنيابة عن ابنتها

تلميذة بالنيابة عن ابنتها !

هذه القصة .. واقعية .. ونشرتها منذ عشرين عاما .. ومازالت منطبعة فى القلوب ...

برغم آلام الروماتيزم الحادة التى تكوى مفاصلها . . وبرغم الجوع والظمأ اللذين يفرضهما صيام رمضان .. وبرغم السن الكبيرة المعجزة للحركة والنشاط .. دأبت هذه الأم على الذهاب إلى الجامعة يوميا لتكتب لابنتها الوحيدة المحاضرات التى يلقيها الأساتذة على طلبة كلية الآداب .

« ومجلة الجيل » تقدم لك هذه الأم فى عيد الأم، ليزداد إيمانك بعظمة الأمومة وعظمة التضحيات التى تقدمها أمهاتنا فى سبيل سعادتنا ورفاهيتنا فى حاضرنا ومستقبلنا .

يارب

اسمها فاطمة عبده صالح ، أنت قد لا تعرفها ولم تسمع عنها ، ولكن الاسكندرية بشبابها الجامعى كله يعرفها ويقدرها ، ويحى

عاطفة الأمومة الحانية فى شخصها .. وينحنى احتراما وإعجابا بكفاحها فى سبيل مستقبل وحيدتها ..

لقد عاشت السيدة فاطمة سنوات طويلة مع زوجها يتطلعان إلى السماء ويطلبان من الله طفلا يملأ حياتهما الخاوية ، ويشبع اسمى احساس فى قلب أنثى ..الاحساس بالأمومة .

ووضعتها أنثى .. وسمتها نجدة . . فكانت نجدة لوالديها من حرمان طويل ، وحياة دب فيها السأم ، فجددت أيامها جعلت لها بهجة وهدفا ، ورسمت على شفاه الأسرة الصغيرة ابتسامة السعادة والأمل .

ثم مات الأب . توفى بعد ٤ سنوات من ميلاد « نجدة » وتركها لأمها التى أصبحت لها أما وأبا .. قامت بنصيبها المعهود من حنان الأمومة ، ورعاية الأبوة ، وصارت « نجدة » تناديها أحيانا بكلمة « ماما » وأحيانا بكلمة « بابا » .. وكأن الطفلة بنت الرابعة قد الهم إحساسها أن هذه الانسانة قد جمعت فى شخصها عواطف الأبوين معا ..

الفتاة المثالية

عاشت السيدة فاطمة حياتها كلها كبيت من بيوت الأوقاف ، نذرت كل فائدته لنجدة فهى الأم الحنون متى كان هو المطلوب .. وهى الأب الحازم متى كان فى الحزم إصلاح الأمور .. والأخت لصديقة متى كانت الصداقة عونا على إدراك الحلول .

ونمت الزهرة الوحيدة فى رعاية بستانى لايغفل عنها ولاينام يغذيها بالعلم ويتعهدها بالتهذيب والتوجيه .. أدخلتها أرقى المدارس التى تتفق مع ظروف الأسرة المالية وتنقلت بها بين مراحل التعليم المختلفة حتى أجتازت مراحل التعليم المختلفة حتى اجتازت المرحلة الثانوية وفازت الفتاة بلقب الفتاة المثالية لمدرسة نبوية موسى بالإسكندرية .

وجاء اليوم السعيد .. أسعد يوم فى حياة كل أم لها ابنة فى ربيع العمر تفتحت براعم صباها وشبابها .. طرق الباب شاب مكافح يعمل بإحدى الشركات ، وطلب يد « نجدة »

احكام قراقوش

وفتحت الأم الباب ، وفتحت معه قلبها للقادم الجديد ، الذى سيصبح رجل البيت بدلامن رجلها الذى راح ولن يعود .. والابن الذى لم تلده ليقف أمام ابنتها أمام الأعاصير وغوائل الأيام .

ورأت الأم أن الزواج لن يحرم « نجدة » من رغبتها فى استكمال تعليمها الجامعى ولكن العريس — الذى ينتسب إلى الجامعة للحصول على بكالوريوس التجارة — فض أن تذهب زوجته إلى مدرجات الكلية ، فقد كان أسر بعض افكاره عن مستوى الأخلاق بين بعض طلبة الجامعة .. وحاولت الأم المحدودة الثقافة — أن تبين لزوج ابنتها قيمة العلم ، كسلاح فى يد

الفتاه على مستقبل مجهول .. ولكن أفكار العريس عن الحياة الجامعية كانت كأحكام القدر لاتقبل نقضا .

قالت له الأم : إنك ستخسر حب زوجتك لك . سوف تكرهك حتما إذا حرمتها من التعليم الجامعى ، بينما أنت ساهر طوال الليل تستذكر دروسك سوف تعتبر هذا العمل أنانية .. وإنك تتعمد أن تحرمها من التعليم الجامعى لتكون فى مستوى أقل منك .

الحل السعيد

ولكن العريس لم يتزحزح .. وخرجت الأم من معركة الرأى متقهقرة .. دون أن تسلم بالهزيمة .. وأخذت تفكر فى حل جديد حتى اهتدت إليه .. لماذا لاتذهب هى بدلا من ابنتها إلى الجامعة ، وتنقل المحاضرات التى يلقيها الأساتذة على الطلبة نتذاكرها « نجدة » فى البيت .. وبهذا تحفظ لابنتها مستقبلها وتحفظ عليها سعادتها وسلامة بيتها .

ووافق الزوج أخيراً على هذا الاقتراح وبدأ التنفيذ ..

ذهبت السيدة الكبيرة إلى الجامعة فى أول يوم تتحسس طريقها إلى قسم التاريخ بكلية الآداب . كانت كالأعمى الذى وجد نفسه وسط ميدان يعج بالناس والمركبات أو كالقروى الذى ذهب إلى المدينة لأول مرة .. كل شىء فيها جديد عليه ، فضفاض كبير على مداركه ..

ونظر إليها الطلبة نظرات مستغربة مايئة بالفضول وحب الاستطلاع .. كانت بينهم أشبه بنوع منقرض من الحيوانات لم يعد له وجود فى هذه الدنيا التى لا يملؤها غير شبابهم وأخيراً اهتدت إلى قسم التاريخ .

الثلاثى البجح

وحدت هناك ثلاثا من الطالبات ، فقدمت نفسها إليهن :
« أنا أم زميلتكن نجدة درويش .. ظروفها اضطرتها للجواز والقعاد فى البيت .. ممكن تسمحو لى أنقل لها المحاضرات علشان تذاكرها ؟ »

وردت الطالبة الأولى متهكمة :

— آسفة ياتيزة ماكانش يتعز .

وانفجرت الطالبات الجامعيات المهذبات ضاحكات من أم زميلة جاءت تطلب معاونة جرى عليها العرف بين الزملاء :
وحولت السيدة وجهها من الأولى إلى الثانية فتفضلت وقالت :

— يعنى لازم تدخل الجامعة ، كفاية عليها العريس .. دى حتى خبطتين فى الرأس توجع ..

وهات ياضحك من الثلاثى البجح وعزعلى الثالثة أن تذهب زميلتها دون أن تودعها بقافية أو قفشة تنافس بها فرقة « ساعة لقلبك » فقالت :

— ياشيخة روحى هاتى لها محاضرات أبلة نظيرة فى أصول الطهى – قال محاضرات قال .

وشبعت الأم سخرية من الفتيات الجامعيات الثلاث .. اللاتى لو أهملت أمهاتهن نظافتهن يوما واحدا .. لأغمى على زملائهن فى المدرجات من رائحة العفن ..

وضاع اليوم الأول فى محاولات لم تحصل منها إلا على مزيد من آلام الروماتيزم ، وجديد من صور الأخلاق بين بعض بنات الجامعات .

للوقت ثمنه

ولكنها عادت فى اليوم التالى وهى أشد عنادا وتصميما على الوصول إلى تحقيق أهدافها . . قابلت فى طريقها طالبة اسمها ليلى عبد الحميد .. لابد أنها تحترم أمها وتقدرها ، لأنها احترمت هذه الأم وقدرت جهدها فأعطتها كراسات المحاضرات ونقلتها

وفى بحثها اليومى عن ليلى ، كانت السيدة تتوه بين أفنية الكلية دون أن تعثر عليها .. فتعرفت فى طريقها بطالبات غير ليلى أبدين نحوها عطفا واشفاقا ..

وذهبت إليهن فى بيوت أسرهن .. لتتعرف إلى أمهاتهن وترجوهن السماح لبناتهن بالمرور على بيتها فى طريق العودة من الكلية لأن مرضها يقعدها أحيانا عن الانتقال ولكن الأمهات جميعهن

رفضن الطلب ، فلم تجد بدا من مواصلة الرحلة اليومية إلى الكلية لتعود بالمحاضرات ...

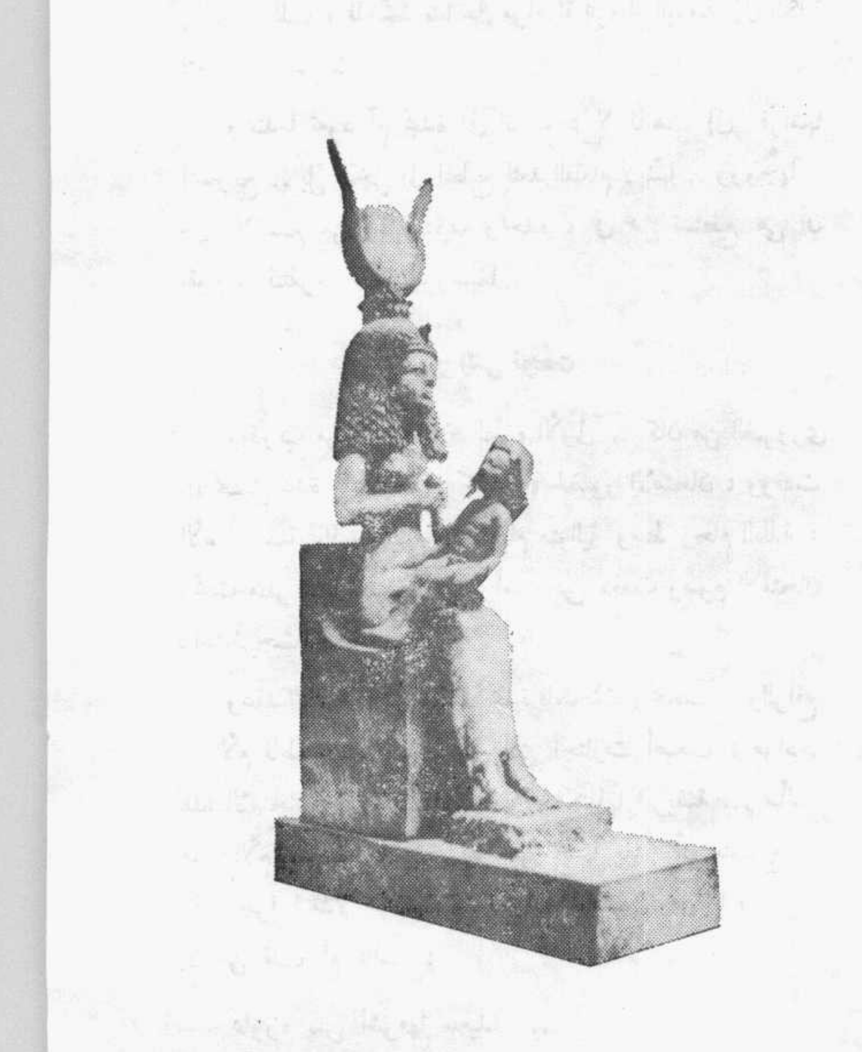
وعندما تعود أم نجدة إلى البيت ، لا تذهب إلى فراشها لتستريح .. بل تدخل إلى المطبخ لتعد الطعام لابنتها .. وزوجها ، حتى لاتضيع من وقتها دقيقة واحدة ، فى عمل تستطيع هى أن تقوم به لتتفرغا تماما لدروسهما ..

من التى نجحت

واقترب موعد امتحان الفترة الأولى .. كان من الضرورى أن تحصل نجدة على بطاقة « كرنيه » لحضور الامتحان ، ووقفت الأم المريضة بالروماتيزم ثلاثة أيام متوالية وسط زحام الطلبة ، وتحت مطر الشتاء المتدفق على رأسها حتى دفعت رسوم الامتحان واستخرجت البطاقة .

وعقد الامتحان ، وذهبت نجدة فامتحنت ونجحت .. والواقع أن الأم فاطمة عبده صالح هى التى اجتازت أصعب « مواد » هذا الامتحان وهى تحمل ابنتها فوق اكتافها المريضة ... سألت هذه الأم العظيمة عما تريده من ابنتها بعد أن تتخرج .. فكان جوابها مثالا — للتضحية ونكران الذات .. جوابا لا يخرج إلا من قلب أم قالت :

— عاوزة بس أشوفها سعيدة ....





للفنان حامد عويس

خذ عظامى كلها من أجله

خذ عظامى كلها من أجله !!

وهذه قصة أم معاصرة .. تؤكد أن الأم هى نبع الحب الحقيقى. الصافى ، نبع التضحيات بلا مقابل . وقد نشر قصة هذه الأم الزميل صبرى غنيم فى « الأخبار » وفازت بلقب الأم المثالية عام ١٩٧٢ . ويستطيع القلم أن يطيل فى هذه القصة ، وينسج معها الخيال ، فتصبح صورة أدبية خالدة . ولكن خلود هذه القصة يكمن فى واقعيتها ، وروعتها . واقعية الأحداث ، وصدق المشاعر ، وروعة الكلمات القليلة التى تتفوه بها تلك الأم العظيمة .. الأم المصرية الأصيلة .

يقول الدكتور محمد مجدى أبو المعاطى ، راويا قصة تضحية أمه من أجله :

واجهت الدنيا لأول مرة ، وشبح العذاب يخيم على ، كنت طفلا مصابا بمرض خلقى بسبب نقص فى تكوين أو التئام العظام . ويتميز من يصاب بهذا المرض ، بعظامه الهشة ، الرقيقة التى تشبه الزجاج أو « حلاوة المولد » كما قال أحد الأطباء .. تتكسر لأقل سبب ، ثم لاتلتئم هذه الكسور بعد ذلك أبدا .

تكسرت ساقاى وعجزت عن المشى ، ثم رحل المرض اللعين ، لكننى كنت قد أصبحت كسيحا .

لقد حملتنى أمى على كتفها ست سنوات ، تذهب بى فى الصباح إلى المدرسة الإبتدائية على بعد خمسة كيلومترات من البيت .. ثم تعود بى بعد الدراسة . وظللت على هذه الحال حتى حصلت على شهادة القبول ، ثم حملتنى أمى إلى المدرسة الإعدادية . ثلاث سنوات أخرى حتى حصلت على الشهادة الإعدادية .

ويسكت الشاب قليلا وتتوقف الكلمات فى حلقه ، ثم يواصل حديثه قائلا ..

— إن حالتنا لاتسمح بشراء كرسى متحرك ، ورغم سوء حالة أمى الصحية .. إلا أنها لم تئن ، ولم تمل من حملى إلى المدرسة كل يوم .

ارجوك يا دكتور

وذات يوم حملتنى أمى من المنصورة إلى القاهرة بعد أن يئست من علاجى فى المنصورة ، وفى مستشفى القصر العينى قام الدكتور كمال الزرقانى أستاذ جراحة العظام بفحصى فحصاً دقيقا ، وأحست أمى أن هناك بادرة أمل .. كانت تتابعه باهتمام وبلهفة وهو يفحصنى .

وفى هدوء قال الطبيب .. إن الأمل الوحيد للعلاج ،

هو إجراء عملية ترقيع عظام للساقين ، وهذا يستلزم أن أستأصل قطعة من عظام كل ساق لك .. من أجل ابنك .. ولكن ..

وسكت الطبيب .. وانهارت أمي .. وأخذت تقول له .

— قطعني .. سأعطيك عظمي كله من أجل ابني .. وكادت تنحني على قدميه حتى وافق رغم أنه حذرها من نتيجة العملية بالنسبة لها .

وأجريت لي العملية الجراحية بعد أن استأصل من ساق أمي قطعتين من العظام طول كل منها عشرة سنتيمترات ، ونجحت العملية وتمكنت في المرحلة الثانوية أن أذهب إلى المدرسة بمفردي . لقد أصبحت أقف على قدمي . . لم أعد في حاجة إلى أن تحملني أمي مرة أخرى . وقررت أن أكون من المتفوقين لأخفف آلام امي ، وحصلت على الثانوية العامة ، والتحقت بكلية طب المنصورة وأنا الآن على باب التخرج لأصبح طبيبا . ويستطرد الإبن الحديث عن بطولة أمه . . رمز الأم المصرية :

لقد صنعت أمي الكثير من أجل سعادتي أنا و إخوتي. . إنني أعرف أن عملية الترقيع التي أجريت لي كانت فوق طاقة إحتمالها . لكنها الإرادة والتصميم .. إن أمي لم تعد تستطيع المشي أصبحت تفرش قطعة قماش وتزحف عليها في المنزل . . تكنس .. وتطبخ وتغسل لنا ملابسنا .

إن والدي رجل بسيط يعمل وكيل محام مقابل راتب شهري

قدره عشرون جنيها ، ورغم ذلك ينفق على أسرة معظم أفرادها فى التعليم . فهناك أخى « ناجى »طالب بكلية الهندسة جامعة الاسكندرية قسم الميكانيكا ، وبهجت (بالثانوية العامة) و (إبتسام) بالإعدادية أما (أزهار) الصغرى فهى زميلتى فى الشقاء . . مصابة بنفس المرض الذى كنت أعانيه . لكن أمى فى هذه الحالة لا تستطيع أن تعطيها من عظامها لأنها أصبحت كسيحة . وقد حاولت أن تعطى جزءا من عظامها ، ولكن الطبيب الذى أجرى لى العملية . . رفض هذا الطلب .

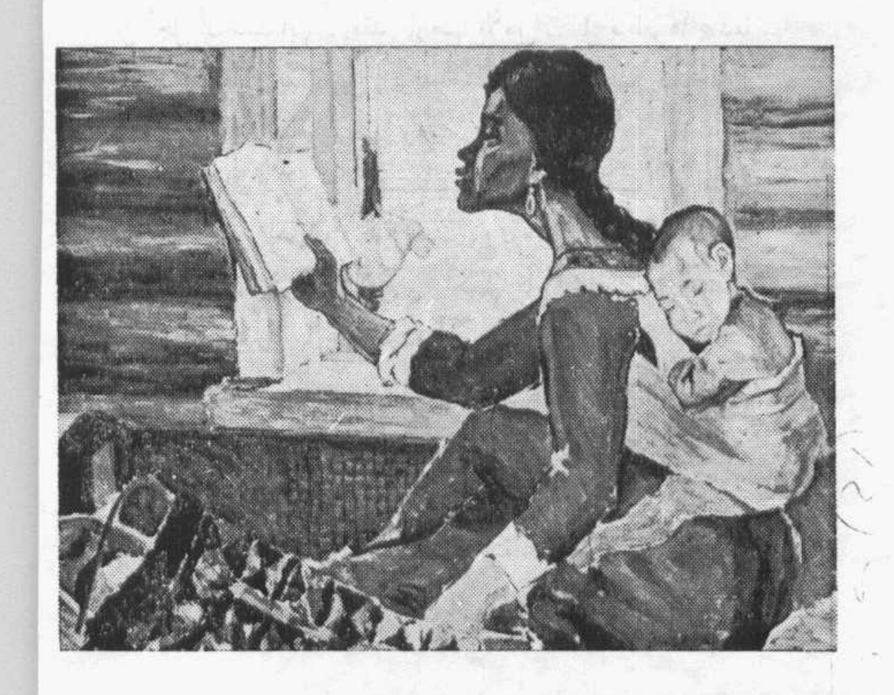
خذ عظامى كلها

واختارتها اللجنة العليا لإحتفالات عيد الأم . . الأم المثالية لمصر . . عام ١٩٧٢ . وعندما علمت بالنبأ . . قالت فى هدوء : إنه واجبى . . واجب كل أم . فأنا لم أفعل شيئا غير واجب الأمومة . . إننى لا أبخل بعظامى كلها من أجل أن يعيش إبنى بدون هذا المرض اللعين .. بدون كساح .. كان همى كله أن يقف على قدميه .. ويمشى . فماذا أكون أنا .. عندما أعرف أن علاجه يتوقف على قطعة من عظامى .. وامتنع .. كيف يحدث أن أرى إبنى الشاب كسيحا بينما أقف أنا على قدمى .. كان لابد من إجراء العملية .. ويومها قلت للدكتور كمال الزرقانى —منحه الله الصحة والعافية — خذ عظامى كلها .. احيانى كسيحة .. بشرط أن يقف ابنى على قدميه . بينما كان ابنى عنعنى ويهدد

بالانتحار.. إذا أقدمت على هذا العمل .. ويقول لى ابنى « ياأمى.. سأظل هكذا .. لاأريد أن أقف على قدمى .. وتصبحين أنت كسيحة » .

إن هذه الأم الصامدة أمينة الشرقاوى .. وقفت أمام أسرتها من أجل أن تنقذ ابنها . فقد عارضها الأهل .. بل قاطعوها عندما علموا بأنها قد وافقت على إجراء العملية ، وأصبحت كسيحة .. لا تتحرك إلا بصعوبة . . واستمرت مقاطعة الأهل لها عشر سنوات .. إلى أن نشرت الصحف .. قصة منحها لقب الأم المثالية لمصر .. فأسرع أهلها ودخلوا البيت لأول مرة .. ولم يكن مقاطعة الأهل لها لأنهم يكرهون الإبن ، لكنهم كانوا يخافون على مستقبل ابنتهم الأم .. ولأنها عارضتهم ..

إن قصة الأم أمينة الشرقاوى .. مثل من مئات الأمثلة التى تكتبها كل يوم الأم المصرية .. إنها نبع الحنان والحب .. بلا مقابل .. وما أنبله من عطاء .. وما أعظمه من حب خالد أبدى . . توجه الله سبحانه وتعالى .. بأن جعل الجنة تحت أقدام الأمهات ...





للفنان صبحي عياد

لن أنسى يا أمي!

لن أنسى يا أمى !!

أمى . .

لقد مزقت ثلاث ورقات عندما حاولت الكتابة إليك . إن الكلمات التى يرسمها القلم معبرا عن إحساساتى نحوك لاتعبر عن دفين شعورى الحقيقى بالنسبة لك ، ومهما كنت فنانا فى صياغة الكلمات ، فإننى أجد نفسى عاجزا تماما عن الإفصاح الحقيقى لأعمق مافى نفسى من خلجات تنم عن حبى الطبيعى لك .

ولكنك ترين غير ذلك . تعلنين أنى جاحد منكر للجميل كالثعابين . وأنك قد أسفت على تضحياتك الكثيرة من أجلى . وعوضك على الله . ثم تعودين إلى قذف سخطك على ، وتنشرين بين الناس « الذين لا يملكون إلا ألسنة كالسياط لإيذاء الآخرين ».. حكاية أننى ابن عاق . وإننى مثل أبى .. أحمل بذور التنمر . والجحود ، وعدم الاعتراف بأى جميل . وعض اليد البيضاء التى تساعدنى . وإننى دائما أنسى .. أنسى كل تضحية .. وكل قلب

● نشرت هذه الرسالة فى جريدة الاسكندرية الاتحاد المصرى مارس ١٩٦٦

يخلص لى . هكذا تظنين ياأمى ، وتنظرين إلى دائما على أننى مازلت طفلا . لأنك تشعرين بالسعادة لهذه النظرة .. وأنا .. أحاول بهدوء ألا أفقدك هذه السعادة التى تشعرين بها ، ولكننى أعترف لك .. أننى لا أستطيع أن أكون طفلا دائما أمامك وفى كل الظروف . وهذا من الأسباب التى تشقيك قليلا .

ولكن الذى يؤلمنى .. أنك تظنين بى . أننى أنسى وأنسى تلك التضحيات التى خلقتنى رجلا ، ناجحا ، مرموقا فى المجتمع الذى نحيا فيه .. إنه يؤلمنى تفكيرك هذا . . ولكن . هل تتذكرين ياأماه ...

عندما كنت صغيرا ، أعيش معك، ألعب ، وألهو ، وأضحك وكنت أرى إبتسامتك ترفرف على وجهك ،لأنك ترينى سعيدا . ومضت الأيام سراعا . وكبرت .. وأصبحت كل شيء فى حياتك ، بعد أن انفصلت عن زوجك .. الذى هو أبى إننى لم أحس به ، ولم أشعر بوجوده ، إلا عندما رأيت دموعك تنساب من مآقيك كالأمطار .

وسمعت أنينك . كان قلبى الصغير يتمزق ، ولم أعرف الذى من أجله تبكين هكذا بحرقة . ونظرت إليك وإلى جدتى التى كانت تعيش معنا بعد وفاة والدك . ولكن نظراتى الحائرة ولم تهدنى إلى إله . وضممتنى إلى صدرك . وقبلتنى ، وأنا مازلت حائرا وسمعتك وأنت تقولين لجدتى .

« لا يمكن أن يأخذ ابني مني . إنه وعدني .. وعدني بأنه لن يأخذه أبدا .. أبدا ..

ورأيتك تبكين بحرقة ياأمي .

ثم عرفت .. عرفت أن الذي يريد انتزاعي منك هو .. أبي . لأنني أتممت عشر سنوات . ويحق له أن يأخذني عنده في بيته لأعيش مع زوجته .. وأولاده .

وعندئذ شعرت بقلبي ينقبض ، وانتابني شعور غامض كان كالإعصار هز نفسي بعنف ، واقتلع آخر بذرة حب لذلك الرجل الذي لم أقل له كلمة « بابا » طوال عشر سنوات . هل تتذكريني يا أماه ؟

إنني بقيت معك . . ولم يأخذني ، وعادت الإبتسامة إليك ، ولكن لم تمض أسابيع حتى ماتت جدتي وأصبحنا وحيدين .

وبدأت تتلقين دروس الحياة . رأيتك تنظرين حولك لتبحثي عن أقاربك وعن أخواتك . لقد هربوا ياأمي .. وتركوك لوحدك .. وقد تعلقوا بكلمتهم .. « اللهم نفسي » . ولكنك صمدت . كان صوت ماكينة الخياطة وهي تدور .. وإنت جالسة أمامها كالموسيقى الناعمة الساحرة .. تبعث في نفسي قوة عارمة . وأنا جالس بجوارك القرفصاء .أذاكر دروس المدرسة . كنت أحاول أن أساعدك بأي شيء . لتستريحي ، ولكنك كنت تدفعيني إلى المذاكرة .. ونجحت .. وتقدمت .. وكنت من

الأوائل . . وكانت الفرحة . تجعلك تطيرين كالعصفورة وأنت تسمعين نبأ نجاحى .

هل تتذكرين ياأماه .. عندما عدت من المدرسة ذات يوم ورأيت عددا كبيرا من الأقارب وقد التفوا حولك . لقد أحطتنى بذراعيك حينئذ .. وقبلتنى . كانت عيونهم مستقرة على وقد جلسوا كالأغنام .. وأخذنى أحد الأقارب فى الحجرة المجاورة ، ليلعب معى .. ولكننى أحسست أنهم قد أبعدونى عنك بلطف . . وغافلت من كان معى ، وجعلته يلعب مع نفسه . وتظاهرت أنا بمتابعة ألعابه به بينما كانت كل أجهزة السمع عندى تحاول التقاط مايدور بينكم من حديث وسمعت أختك وهو تقول لك :

— فكرى فى الموضوع .. أنت مازلت جميلة .. وحلوة .. ولابد أن تتزوجى . ابنك سيأخذه أبوه .. وعندما يكبر سيعرفك ويعود إليك .

وسمعتك وأنت تقولين :

— أبداً .. كيف أتزوج .. واترك ابنى لتضربه زوجة أبيه .. أبدا .. لن أتزوج .

هل تتذكرينى ياأماه ..

إننى لم أنس .. ولا يمكن أن اسى تلك الصور المشرقة من تضحياتك التى أضاءت لى الطريق . .طريق النجاح فى الحياة .

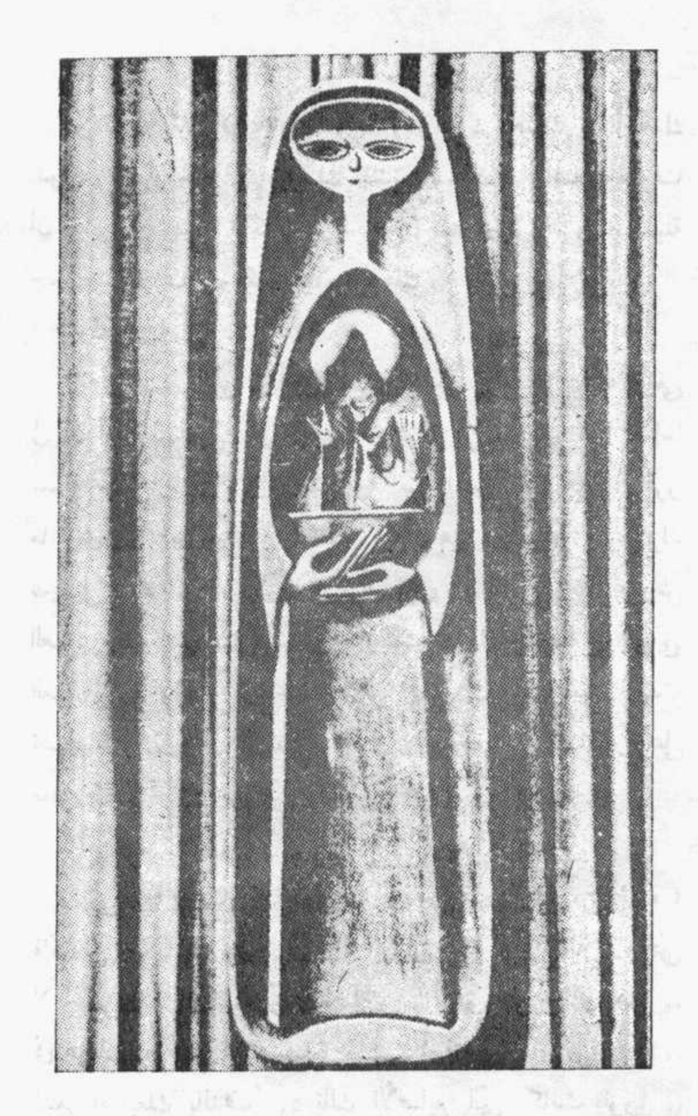
ومضت ثلاثون عاما بحلوها ومرها . أحببت أن أسعدك بدوري في أواخرها . ولكنك ظننت بي الظنون . عندما قررت أن أتزوج بمشيئتي . كنت تريدين أن تختاري لي عروسا جميلة حسب شروطك ، ومقاييسك ومزاجك .

ولكن يا أمي ..

معذرة .. لأنني لم أحقق لك هذه الأمنية ، لأنه ينبغي لي أن أختار بنفسي حتى أكون مسئولا عن تصرفي هذا . إنها مسألة تهمني ياأمي . إنها تشعرني أنني أصبحت رجلا ، أقرر ما أرى فيه أنه خير . ولكنك ترين هذا جحوداً ، ونكرانا للجميل . لأنك أنت التي يجب أن تربي لي العروس .. عروس العمر . لقد اعتقدت أنت أنني آويتك عندما اخترت أنا بنفسي العروس . وإنني ماعدت أصغي لكلمتك .. وأنني نسيت تضحياتك .. ومع ذلك وجدتك .. وأخيراً .. توافقين على ماقررت وتحبين عروستي .

أمي . .

إنني مهما بذلت من تضحيات ، ومهما قدمت لك من أشياء ، فإنها لن تكون إلا قطرة صغيرة بجوار محيط لانهاية له . وحتى لا أعض يدك البيضاء كما تتخيلين .. أرفق مع خطابي هذا .. في عيدك .. وأنا في بلاد بعيدة عنك .. أرفق قفازا (جوانتي) .. لتنعم أصابعك بالدفء .. تلك الأصابع التي كانت نورا .. أضاء لي طريق الحياة .. طريق النجاح .



للفنان صلاح عبد الكريم



يا نبع حبى .. أصبحت الحياة .. بلا حياة ! !

يا نبع حبى ...
أصبحت الحياة ...
بلا حياة .. ؟؟

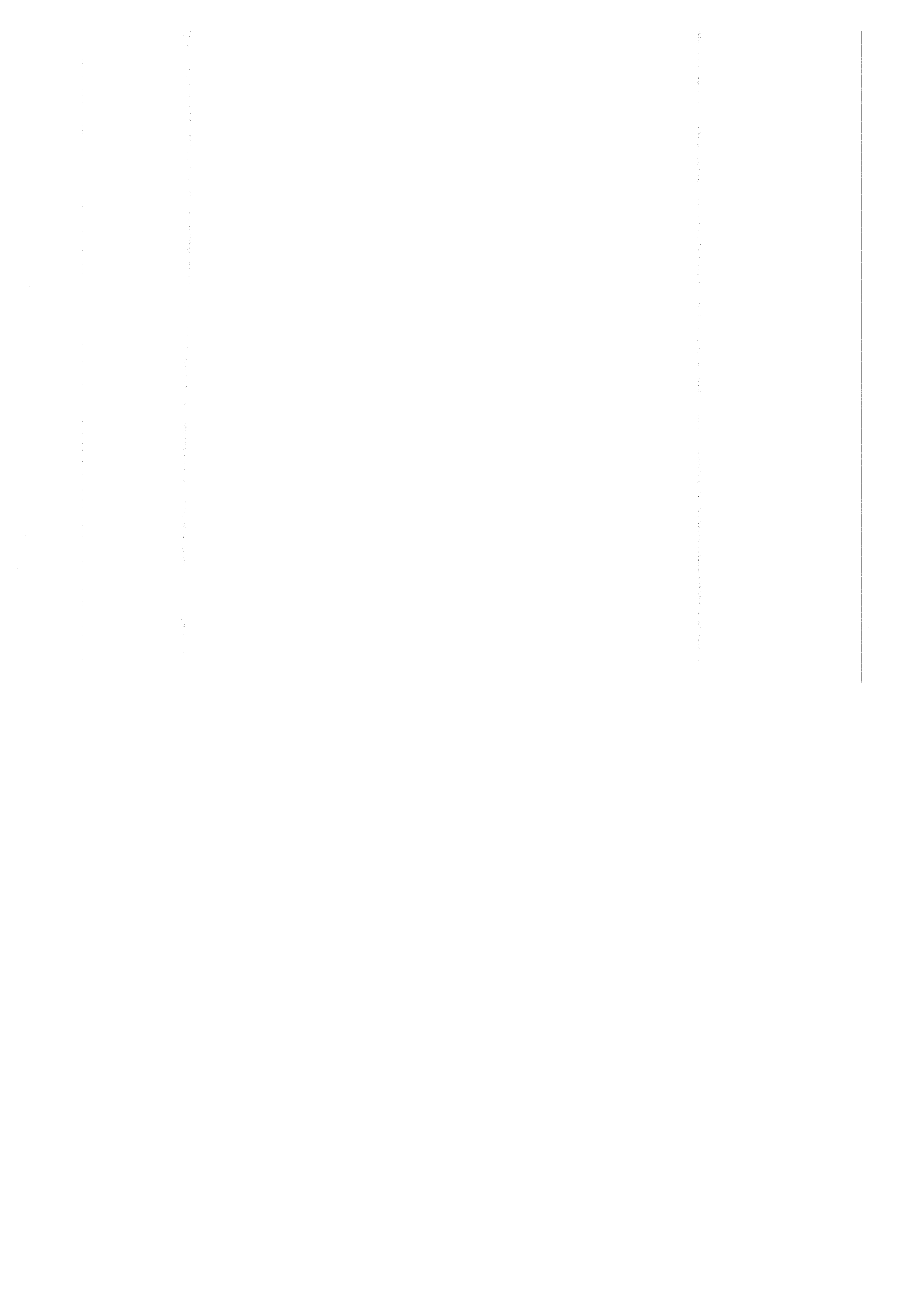
يا حب .. الحب
يا نبع الحب .. فى صحراء الحياة القاحلة ، المقفرة
يا من كنت أرتشف رحيق الحب الصافى
من تحت قدميك .. المقروحتين
ومن نور جبهتك ، ووجهك النورى
كنت أهتدى فى ظلام حياتنا الحالكة
ماذا أفعل الآن .. يا نبع حبى
أمى
كنت اصارع الدنيا من أجل أن أرى بسمة من ثغرك ، وفرحة القلب فى عينيك
من أجلك .. ومن أجل رقدتك الطويلة
فى فراش المرض ، استعذب أن

أكون صامتا .. مثل صمتك عن الكلام طوال
عشرة شهور ..
ماذا أفعل الآن يا أماه .. كل صباح ..
كنت أجد متعة السعادة ، وأنا بالقرب منك فى سرير المرض ،
أداعبك لترتشفى من يدى
بعض شراب البرتقال .. أو تأكلى قطعة من الحلوى ..
وفى بحر عينيك .. أغوص إلى اعماق حنانك
لأراك .. وأنت تتحاملين على قدميك العاجزتين
لتطمئنى على ..
وتغطينى بالغطاء .. حتى لا أصاب بالبرد
يا نبع حبى ...
يا من قهرت الصمت .. على لسانك ..
لكن دقات قلبى ..
كانت تسمع نبض قلبك .. المتألم ..

كنت تستنجدين برب العالمين أن
يضمك إليه
حتى لا تجعلينى أتألم وأنت راقدة
صامتة
تتعذبين من آلام الآلام فى جسدك
يا نبع حبى ..
يا أصفى .. وأنقى حب فى الحياة ..
تحبين بعطاء لا نهائى ..
بلا مقابل ..

من أجلك يا نبع الحب ..
أحبنى الله
فجعلنى أرتشف من تحت قدميك رحيق ، وعطر جنته
حقق لى أغلى أمنية فى حياتى ..
دعوتها لك فى بيته العتيق فى الملتزم
أن أكون بجوارك .. لحظة رحيلك
يا حب الحب ..
قلمى يرتعش باكيا يا أمى ..
عاجزا عن الحركة ..
من بعدك .. تفجرت دموعى العصية
أنهارا ..
يا من كانت الملائكة تكرمنى من أجلك ..
فأصبحت الآن خائفا ، مرتعدا ..
كنت ، نبعى ، وغطائى ، وحياة الحياة
فأصبحت الحياة بلا حياة ..
يا نبع حبى فى هذه الحياة
ولا حول ... ولا قوة الا بالله
ويتغمدك برحمته ، وعفوه .. ورضاه
إلى يوم اللقاء

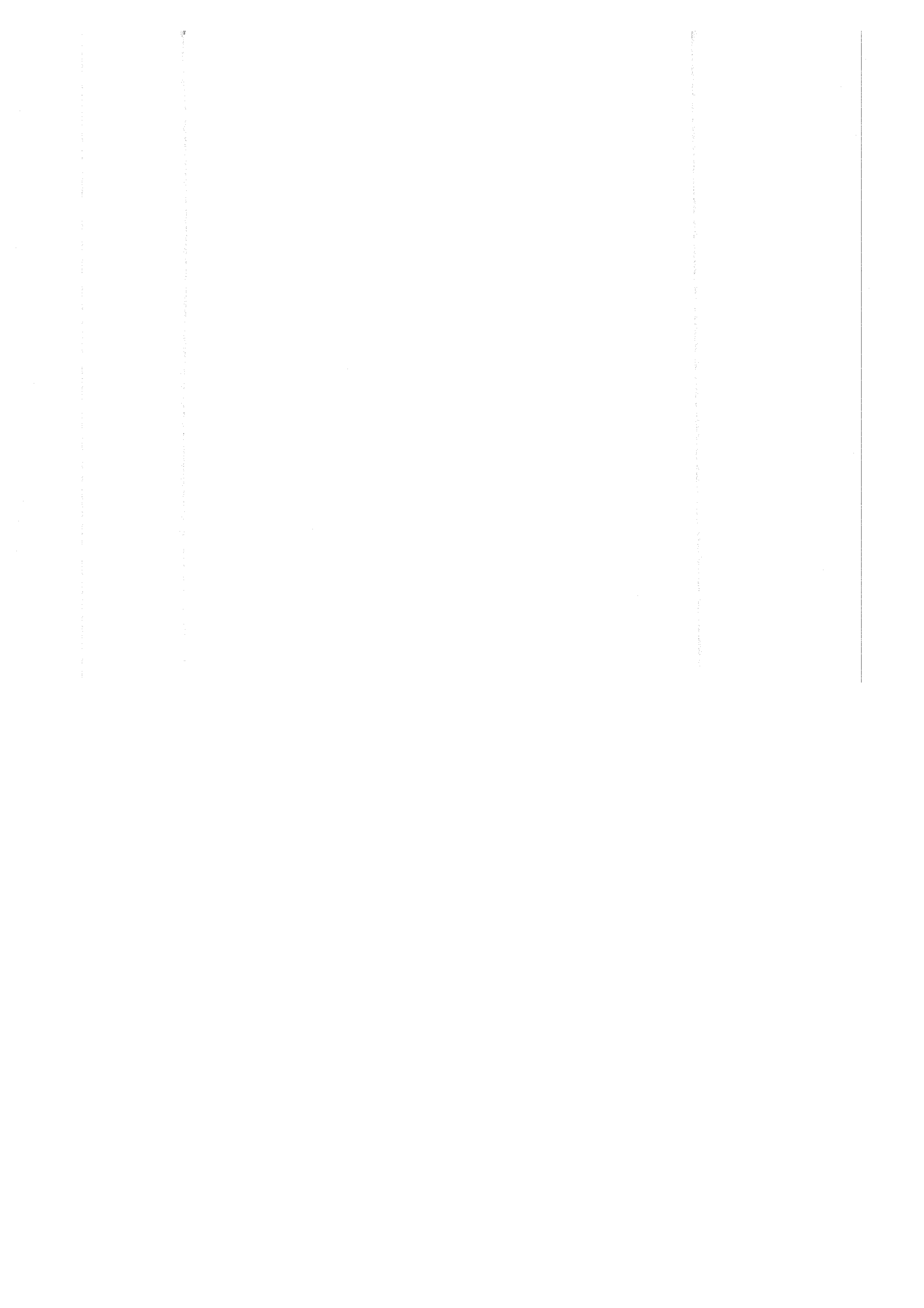
« ف »





قصه :

قطرات من حب .. بلا مقابل



قطرات من حب .. بلا مقابل

صرخت الزوجة وهى تنظر الى زوجها :

ـ حاسب . .

وفى آخر لحظة توقفت السيارة قبل أن تصدم السيارة التى أمامها ، بعد أن تنبه الزوج من غفوة ذكرياته عن أمه التى رحلت منذ أيام ، والدموع قد تحجرت فى عينيه . وتمتم :

ـ الحمد لله .

ـ قلت لك لا تقود السيارة وأنت مرهق . . من الحزن .

وانطلق عواء آلات التنبيه من السيارات التى خلفه ، على طريق الكورنيش بالاسكندرية أمام مبنى الجامعة بالشاطبى . . وتمتم الزوج . .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله . كأن الشيطان يلهب ظهورهم بسوط . . إنهم يتسابقون كالمجانين .

وتحرك بسيارته . . في طريقه لزيارة أمه فى المقابر . . واقترب من « السلسلة » . لكم تغيرت الاسكندرية . فى ثلاثين عاماً فقط . . . ونظرت الزوجة الى « السلسلة » . ذلك المكان الذى قضيا فيه الساعات الطوال يرسمان خطوات أحلامهم المستقبلية . وكيف تحول الآن الى منطقة عسكرية وقال الزوج :

ـ السلسلة . ياه . . البلوڤر . . هل تذكرين . .

ودق قلب الزوجة بسرعة بعد أن تسربت اليه دماء الماضى أو الذكريات ، التى مازالت متحفرة فى عقل زوجها رغم قسوة الصدمة بوفاة أمه ، وسمعته يقول :

ـ البلوڤر . . كان مفاجأة لى . . عندما طلبت منى أن أجربه . . قلت لى مبروك . . لقد أحاط صدرى وقلبى بدفء حب صادق . . لم أتخيل أنه سيستمر ثلاثين عاماً . . مضت كأنها لحظة .

ـ المهم أن تنتبه الى صحتك . . إنك لم تقصر تجاه والدتك .

ـ رحيلها كان صعباً .

ـ الحمد لله . . لقد أكرمها الله وأنت بجوارها . . وكلنا بجوارها . .

ـ واقتربت السيارة من ميدان المنشية ـ النصب التذكارى للجندى المجهول ، مبنى المحكمة . . وعاد شريط ذكرياته الى الوراء . . الى الوراء . . قبل نهاية الحرب العالمية الثانية . عام ١٩٤٣ . وتوقفت السيارة فى الأشارة عند هذا المكان . . فقد اصطدمت سيارة أتوبيس ، بسيارة صغيرة . . .

. . وتجمهر الناس . . وقالت الزوجة :

ـ تجمهر الناس كأنهم فى مظاهرة . . تعطل المرور .

وأوقف الزوج محرك سيارته ، وزاغ بصره الى الميناء الشرقى ،

وبعض الصيادين جالسين بسناراتهم يصطادون . . والشمس توسطت السماء ، وخرجت الكلمات من فمه مرتدية عباءة السخرية ، وذكريات الماضي السحيق .

ـ مجموعة صغيرة من الناس تسميها مظاهرة . . ماذا تقولين عندما خرجت الاسكندرية كلها ذات يوم فى عام ١٩٤٤ ، عندما سقطت طائرة ألمانية بعد أن نفد وقودها خلال غارة طويلة . . ولم يجد الطيار مكاناً يهبط فيه الا الأرض الفضاء الموجودة بجوار المحكمة . . وكان يطير فوق المبانى مباشرة ليهرب من طلقات المدافع التى حاصرته من كل جانب . . وهذا الكورنيش أيام الحرب كان مليئاً بالمدافع المضادة للطائرات . . وخاصة قرب قلعة قايتباى . . وأخطأ بعض المدفعجية . . فى تصويبهم فأطاحوا بالأدوار العليا من المنازل المطلة على الكورنيش . . فكانت الكارثة . . أيام . . أيام . . ولا أنسى كيف حملتنى أمى فوق كتفها بين الآلاف الذين جاءوا ليشاهدوا الطائرة الألمانية التى سقطت فى الأرض الفضاء بجوار محكمة الاسكندرية . . ولازالت الصورة ماثلة فى ذهنى حتى الآن رغم مرور السنين . . كنت أرى الضباط الانجليز . . وهم يفحصون الطيارة الألمانية الضخمة . . التى أفرغت كل قنابلها على الاسكندرية طوال الغارة الطويلة التى استمرت ست ساعات . . وقالوا . . يومها . . إن روميل سيدخل الاسكندرية بعد ساعات . . وقد عسكرت قواته فى العلمين . . وكنت أرى الذعر ، والخوف فى وجه أمى ، وجدتى . . وهم يحزمون أمتعتهم بعد ذلك ، ومعهم الآلاف من أهل الاسكندرية . . هاربين من المدينة التى تحولت الى مدينة أشباح . . بعد أن توقعوا بأنها ستكون ميداناً لمعركة طاحنة بين الانجليز والألمان . . تحملت أمى كثيراً . .

وقاطعته الزوجة :
— يرحمها الله . .
ونظرت إليه ، فوجدت عينيه تلمعان من دموعه المتحجرة . . وأشاح بوجهه بعيداً . .
وعاد عويل « كلاكسات » السيارات يرتفع مرة أخرى ، وبدأت السيارات تتحرك ببطء ، بعد فك اشتباك اصطدام السيارتين ، وانطلق بسيارته ، وزفر زفرة حارة ، حملت معها كمية كبيرة من الألم الذى ملأ صدره .

وتوقفت عند إشارة شارع اسماعيل صبرى ؛ وأمواج ذكريات الماضى تثور ، وترتطم بجدار جمجمته ، محاولة غسل الصور الحالية التى تراها عينيه . . برذاذ الماضى . . ورأى النور الأخضر ، فانحرف يساراً . . وتحرك ببطء وكلمات متقطعة تنساب من فمه ، والزوجة تستمع الى تلك الكلمات ، متيقنة بأنها تزيح بعض آلامه .

— انظرى . . هذا هو جامع سيدى « على تمراز » . . كان يحلو لبيرم التونسى أن يجلس على رخامة الباب الخارجى من العصر الى المغرب . . يكتب أزجاله النارية . . وكنت أشاهده كثيراً ، وهذا الميدان الواسع « ميدان الخمس فوانيس » كانت تقام فيه المراجيح « والدويخة » أيام العيد ولا أنسى موقفاً ذات عيد . . ولم أستطيع أن أركب الحصان فى « الدويخة » . . وعدت الى البيت . . ووجدت أمى الدموع فى عينى . . وسألتنى عن السبب ، فما كان منها الا أن ارتدت ملايتها . . وهرعت معى الى مكان « الدويخة » وكان الوقت بعد العشاء . . وتوقفت جميع الألعاب . . ولكنها استعطفت صاحب « الدويخة » لتشغيلها . . لأركب الحصان . . قائلة له . . « معلهش

يا حاج .. أصله يتيم ونفسه يركب الحصان .. وطول النهار مش عارف من الزحام يركب الحصان » .. وكانت عيناى تكاد تنخلع من مكانها لتقفز على الحصان الخشبى الملون .. وأخيراً .. استجاب صاحب « الدويخة » وأمر صبيته بتشغيلها .. وركبت أنا الحصان الملون .. والفرحة وسعادة الدنيا .. قد ارتسمت على وجه أمى .. عندما رأتنى سعيداً .. واحتضنت الحصان الخشبى بكل قوة حتى لا أسقط من دوران « الويخة » واشتد الدوران .. وخشيت أمى أن أسقط .. فطلبت من صاحب « الدويخة » أن يوقفها ولكننى تشبثت بالحصان .. لا أريد أن أفارقه .. بل كنت أريد أن أنام فوقه حتى الصباح .. أيام .. أيام ..

وعبرت السيارة تقاطع شارع رأس التين ، باسماعيل صبرى ، وعند دكان صغير للجرايد .. كان صاحبه « سيد النّنْ » .. أوقف السيارة .. قائلاً لزوجته :

ـــ هذا الدكان .. كان جامعة صغيرة لى .. اشترى منه روايات الجيب .. وأرسين لوبين .. وأنا صغير .. لحظة واحدة .. أن شقيقة والدتى تسكن فى الدور الأول .. سأعطيها شيئاً أوصتنى به أمى يرحمها الله ..

لم يغب طويلاً ، سمع عويل « الونش » وهو يقترب لاقتناص السيارات المخالفة ، فهرع الى سيارته ، وأدار المحرك بسرعة .. قائلاً لزوجته :

ـــ الحمد لله .. لم أغب طويلاً .. إن شارع اسماعيل صبرى أيام زمان لم يعرف « الونش » .. كان الخنطور هو كل شىء .. وكان الشارع هادئاً .. أما هذا الزحام .. يا سبحان الله .. انظرى .. هذه زاوية

الأعرج . . وبداية شارع الميدان . . هل رأيت هذا الفكهانى الذى يحتل ناصية زواية الأعرج . . كان منذ سنوات . . مكتبة « عم حجازى » . . أشهر مكتبة فى حى بحرى . . لا يمكن لأى طالب أو أستاذ فى كلية الآداب ، أو طلبة المعاهد الأزهرية . . تخلو مكتبته من كتب المكتبة الحجازية . كان هذا الرجل موسوعة نادرة . . . اذا طلبت منه كتاباً . . لإعداد بحث عن موضوع معين . . كان يتحفنى بعشرات الكتب والمراجع التى تساعدنى فى البحث . . كان حبيباً لكل طالب يقصده . . يرحمه الله . . وربما باع أبناؤه . . وأحفاده المكتبة . . غذاء العقول . . لتتحول الى فكهانى . . غذاء البطون . . هذا أفضل من بعض مكتبات مصر . . التى تحولت الى محلات للأحذية . . ابتسمت الزوجة قائلة :

ــ بيع الأحذية الآن أفضل من الكتب .

قال الزوج : معك حق . . ولكن ويل لأمة يتحول عقلها الى قدمها . . من الكتاب الى الحذاء . . آه يا زمن . .

قالت : الدنيا تتغير . . وهذه طبيعة العصر .

قال بسخرية : تقصدين عصر الدماغ ! ! أمواج عنيفة تتلاطم فى دماغى . . كلما جئت الى حى بحرى . . والجمرك . . مئات أمواج الذكريات تغسل ذهنى . . وأن أعود الى الوراء . . كنت أحيا مع أمى طوال ستة وعشرين فى هذا الشارع . . شارع صفر باشا . . أشهر شوارع رأس التين . . كان هدفا لقنابل طائرات الألمان لملاصقته للميناء . . هذا أول الشارع . . سيدى المغاورى . . كانت هناك بعض البيوت الصغيرة . . أمام شارع الشمرلى . . وفيه بائع عرقسوس شهير . . لا مثيل له . . انظرى . . تحول كل شىء الى ميدان

صغير . . ولكن مازالت الترام تسير فيه . . كانت هناك ترام (رقم ٦) استقلها كل يوم من محطة « فرن حبيب » الى مدرسة رأس التين الابتدائى . . ولابد أن أقف بجوار سائق الترام . . الذى يفرمل الترام فى محطة بطريقة دائرية حلزونية . . وليس كما يحدث الآن . . بطريقة ضغط الهواء . .

ونظرت الزوجة اليه ، وهو يقود السيارة ، والدموع تلمع فى عينيه ، لقد استراحت نفسيتها قليلاً ، بعد أن رأته قد خرج عن صمته الذى لازمه منذ وفاة أمه طوال أسبوع . . وقد دفعته الذكريات الى الكلام . . لتستريح نفسيته . . لحظات وسمعته يستكمل شريط ذكرياته .

ـ هذا قسم الجمرك . . شهد أحداثاً خطيرة طوال السنين . . لم أدخله الا مرة واحدة . . بعد أن حصلت على شهادة الليسانس كان لابد أن أحصل على شهادة إعفاء من الجيش . . لأننى وحيد أمى . . فطلبت أن التحق بدفعة غير المؤهلات لأحصل على هذه الشهادة لأنها من ضروريات العمل . ولا أنس منظر أمى . . وهى تنتظرنى حتى الفجر . . وهم يرحلونى الى طنطا . . كانت تبكى . . وكأنهم سيقدموننى الى المشنقة . . ولم تطمئن على سفرى الا عندما وعدها الحاج عطية أحد أقربائنا . . بأنه سيكون معى فى القطار . . حتى طنطا . .

ياه . . أيام .

كانت لا تتصور أننى سأنام على الأرض ويحلقون شعرى « زلبطة » وآكل العدس بالسوس ، والفاصوليا بالدود . . فالجيش لا يعرف

الرفاهية ، ولابد من تدريب الجنود على الاحتمالات حتى أكل الثعابين . .

وشعرت الزوجة بغثيان . ولكن استطرد شريط ذكرياته قائلاً :

ـ وكلما كنت أمر بالترام كل صباح فى هذا الشارع . . بجوار باب ٦ ، أشعر بأننى تائه ، وغريب . . فكل العمارات كان يسكنها الانجليز ، والجنود الأفريكان الذدين يستجلبونهم من أفريقيا وكذلك الجنود الهنود . . وكانت أمى تحذرنى بأن هؤلاء السود لهم ذيل طويل . . ويأكلون الأطفال . . والأولاد الصغار . . تماماً كما تصورهم أفلام طرزان . . وأن السود هم وحوش من « آكلى البشر » . .

ومرت السيارة بجوار (باب ٦) الذى أصبح الآن يؤدى الى محطة الركاب الكبرى ، وتم شق طريق جديد . . يسمى شارع النصر . . حتى المنشية . . واقتربت السيارة من باب « الكراسته » ، وتوقفت لازدحام الشارع بعربات نقل البضائع من الجمرك والترام الجديدة . وأوقف الموتور الدائر ، حتى يتم فتح الطريق . . وعاد الى الوراء . . وحبات العرق تتسرب من جبهته ، ونظر الى زوجته وقال :

ـ فى هذا المكان . . وقعت لى حادثة انحفرت فى ذاكرتى ولا أستطيع أن أنساها رغم مرور عشرات السنين . . كانت الأمطار تهطل بغزارة ، والبرق ، والرعد . . . .   لا يتوقفان وقد توقفت الترام التى اركبها قبل الساعة السابعة صباحاً فقد تحولت هذه المنطقة الى بحيرة ، واختفى شريط الترام تحت البحيرة . . وكان على الناس أن يعبروا هذه البحيرة فوق « عربات كارو » تجرها الحمير . . أو يغوصون بأقدامهم فى الماء . . والأمطار تهطل عليهم . . وكنت أخشى أن أتأخر عن موعد دخول المدرسة الساعة الثامنة صباحاً . . ويتم اغلاق باب المدرسة . .

ياويل من يراه ناظر المدرسة الأستاذ المحجرى . . الذى كنا نخاف منه ، ومن أصابعه التى تهرس الأذن عقاباً على التأخير . . وكان يركب معى فى نفس الترام أحد أقارب أمى المتعجرفين . . ومعه إبناه فى نفس مدرستى مدرسة رأس التين الابتدائى . . ولم أحبها بسبب غطرسة أبيهما . . فقد كان يعتقد فى نفسه أنه من البهوات . . فكان منعزلاً عن أهله . . رغم أنه يسكن بجوارنا فى شارع « التلامذة » أو « شارع حلابو » وسبب هذه التسمية فى ذلك الوقت . . إن أولاد هذا الشارع كانوا يلبسون الأحذية . . بينما أطفال الشوارع الأخرى . . كانوا حفاة . . كنت أحمل حقيبة المدرسة ، والمطر ينهمر . . فوق رأسى ، ولا أجد مكاناً احتمى فيه ، والناس يجرون ، ويقفزون فى البحيرة ، والبعض الآخر يتسابق ليركب عربة الكارو . . لتنقلهم عبر البحيرة . . الى الجهة الأخرى من باب « الكراسته » حيث يوجد الترام هناك . .

وفى هذا الوقت العصيب . . رأيت قريب والدى هذا يقفز الى حنطور ويأخذ ولديه ولم يطلب منى أن أركب معهم . . وتحرك الحنطور . . بينما أنا واقف تحت الأمطار . . وهدانى عقلى الصغير الى أن أتشعبط خلف الحنطور بين العجلتين الخلفتين . . وتشبثت بماسورة خلف الحنطور . . وربما أحس العربجى بوجودى . . فكان يضرب بكرباجه نحوى ولكننى تشبثت أكثر . . فليس هناك من وسيلة لكى أصل الى المدرسة غير ذلك . . وتحت الأمطار اخترق الحنطور بحيرة الماء . . والأمطار تهطل بغزارة . . وصوت البرق ، والرعد . . وحوافز الحصان . . موسيقى عجيبة تعزف فى أذنى . . الى أن وصلنا الى المدرسة . . ولكننى قفزت من خلف . الحنطور عندما شعرت أننى اقتربت من مدرستى . . وحتى لايرانى العربجى . . وهذا الرجل المتعجرف . . وولديه . .

وجريت الى باب المدرسة قبل أن يغلقه عم محمود البواب .. فقد اقتربت الساعة من الثامنة .. ورويت هذه الحكاية لأمى .. التى فضحته فى كل العائلة .. وبعد سنتين .. مات الرجل .. ولم يستكمل ولداه تعليمهما .. دنيا .

وقطع شريط الذكريات صوت (كلاكسات السيارات) فقد فتح الطريق ، وأدار الزوج محرك السيارة .. وتحرك .. عابراً باب الكراستة ، ثم الى قسم اللبان .. الذى كان تسكن خلفه « ريا وسكينة » أشهر سفاحتين فى تاريخ الاسكندرية ، واستمرت السيارة فى المسير فى شارع « السبع بنات » تجاه المنشية ، ثم انحرف يميناً حتى المنشية الصغرى ، ثم شارع أبى الدرداء . واقترب من إشارة مرور مبنى مديرية الأمن .. ووقف .. ووجه كلامه لزوجته :

ــ كان هذا المبنى أيام الحرب العالمية الثانية ، مقراً للمحافظة .. ولا أنسى عندما كانت أمى تصحبنى الى هذا المبنى مرة كل شهر .

قالت الزوجة : لماذا ؟ ولماذا كل شهر ؟

قال : كان أبى يريد أن يتعبها .. فقد حول مبلغ النفقة من مرتبه على المحافظة . لأنها رفعت عليه قضية نفقة .. ولا أنسى منظر العساكر وهم واقفين صفين .. ومعهم البنادق .. ويؤدون التحية العسكرية لكل ضابط يدخل أو يخرج من مبنى المحافظة .. كان منظرهم .. مثير بالنسبة لى .. مازال متحفراً فى ذهنى حتى الآن ..

ونبهته الزوجة الى الاشارة الخضراء .. فتحرك بسيارته .. ليقترب من ضريح سيدى أبى الدرداء الذى يلتف حوله شريط الترام .

قالت الزوجة مستفسرة :
ـ غريبة .. ضريح فى وسط الشارع هكذا ..
قال : إن أهل الاسكندرية يروون عنه الأساطير .. يقولون أن طوربيدا ألمانيا كاد يسقط فوق هذا الحى .. فى إحدى الغارات الألمانية .. وقد رأى بعض الناس شيئاً أبيض .. يطير .. تجاه الطوربيد .. ليغير اتجاهه نحو البحر .. ويروون أن أحد المهندسين الانجليز . طلب من العمال هدم الضريح عندما كانوا يمدون شريط الترام .. وعندما حاولوا .. أصيب المهندس الانجليز بالشلل .. فترك العمال فئوسهم وهربوا .. وعندئذ تم تحويل شريط الترام ليكون دائرياً حول الضريح منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن .. ويتبرك به أهل الاسكندرية .. ألم تلاحظى .. أن سيارة الاسعاف التى كانت تقل جثمان أمى ـ يرحمها الله ـ مرت من هذا الطريق .. حتى المقابر ...

ثم انحرفت بسيارته يميناً فى شارع الخديو .. وظلت السيارة تتلوى بين عربات الترام ، واللوريات ، والسيارات .. ولمح مدرسة رأس التين الابتدائى ، والثانوى ... عن يساره .. وقد قضى فيها أربع سنوات .. مليئة بالذكريات .. حتى وصل بسيارته الى مستشفى دار اسماعيل .. وأوقف السيارة بجوارها .. فأمامها « باب العامود » . نسبة الى عامود السوارى .. وامتلأت عيناه بالدموع . فقد تجسدت صورة من الماضى السحيق . أمام عينه ، وقال .. وكأنه يحدث نفسه :
ـ لقد أصيبت بخراج فى اللوزتين .. ولم تدر أمى ماذا تفعل بى .. قالوا لها ضعى كيس ردة دافىء على صدغه .. وهى لا تعرف أن ذلك يؤدى الى عكس ذلك .. وارتفعت درجة حرارتى حتى وصلت ٤٠ .

وكنت اتخيل أن قطاراً قادماً بسرعة يدهمنى .. فكنت أصرخ .. فكانت تقف تبكى ، وتقول لمن حولها .. ماذا أفعل .. ماذا أفعل ، كانت طيبة .. ساذجة .. قالوا لها ضعى فوق رأسه « كمادات » بالثلج .. وظلت على هذا الحال ثلاثة أيام .. حتى تسمم جسمى وبدأت أروح فى غيبوبة .. الى أن أخبرها أحد أقاربنا .. بأن تنقلنى فوراً الى مستشفى دار اسماعيل .. وهرعت بى الى هناك .. وكنت متهالكاً لا أقوى على الوقوف .. حتى أدخلتنى الى الدكتور البابلى .. وكنت أرتجف من الخوف رغم أننى جاوزت السادسة عشرة .. وطمأننى الدكتور البابلى .. قائلاً بأنه سوف يكشف على فقط .. وفى الغد يجرى لى عملية فى اللوزتين .. وفتحت فمى .. وأحسست بوغزة مشرط .. وصرخت .. وطلبت منى أن أفرغ ما فى فمى فى حوض صغير .. وتقيأت صديداً كثيراً .. ملأ حوضين .. وسمعت الدكتور البابلى .. وهو يقول لأمى .. الحمد لله .. ابنك كتب له عمر .. كان الصديد يسمم جسمه .. الحمد لله .. تمت العملية .. ووقفت أمى مذهولة .. فقد كنت حياتها .. وكادت تفقدنى بسذاجتها .. واحتضنتنى .. حتى لا أقع من شدة الاعياء .. يرحمها الله .. هيا بنا ...

ولكن الزوجة أحست بصداع حاد ، فالجو حار شديد الحرارة .. وقد أرهقتها ذكرياته .. فطلب منها أن تبقى فى السيارة .. وتحرك .. نحو المدافن .. حيث ترقد نبع حبه .. الذى ارتشف منه طوال حياته بلا مقابل .

فهـــرس

● صدر للمؤلف ●

★ من دار المعرفة الجامعية

ـ الرأى العام والمخطط الصهيونى	(الطبعة الثانية)
ـ صحافة المستقبل والتنظيم السياسى	(الطبعة الثالثة)
ـ الاعلام والرأى العام	(الطبعة الثانية)
ـ الاعلام والصحافة وأثرهما فى الرأى العام	(الطبعة الثانية)
ـ الاعلام العالمى والدعاية	(الطبعة الثانية)
ـ الاعلام والانسان المعاصر	
ـ صحافة الاصرار	
ـ القهيلا وأسرار المنظمات الصهيونية	(الطبعة الثانية)

★ مجموعات قصصية

ـ بلا نهاية (مجموعة قصص)	دار نشر الثقافة بالاسكندرية
ـ قصص قصيرة جدا	دار الكتب الجامعية بالاسكندرية
ـ قصص سكندرية فى المعركة	هيئة الفنون والآداب
ـ دافيد كوبر فيلد (حوار تمثيلى)	دار نشر الثقافة
ـ ترنيمة حب (مجموعة قصص)	دار الكتب الجامعية
ـ قلب الحب (مجموعة قصص)	دار الكتب الجامعية

ـ كلمة حلوة (مجموعة قصص)	دار الشعب
ـ رحلة صيد قصيرة (مجموعة قصص)	الهيئة العامة للكتاب
ـ آه يا بلد (مجموعة قصص)	مكتبة مدبولى

★ دراسات نقدية

ـ محمود تيمور وفن الأقصوصة العربية	دار المعارف
ـ فن القصة عند تيمور	دار المعارف
ـ الجنس والواقعية فى القصة	الهيئة العامة للكتاب
ـ أدباؤنا والحب	دار الشروق
ـ عالم تيمور القصصى	الهيئة العامة للكتاب
ـ الأم حكايات وقصص (الطبعة الثانية)	كتاب أخبار اليوم
ـ نبضات القلوب وأدباء الأقاليم	دار الشعب
ـ الأم (الطبعة الرابعة)	الهيئة العامة للكتاب
ـ عشرة آلاف خطوة مع الحكيم	الهيئة العامة للكتاب

★ دراسات صحفية وسياسية

ـ الرأى العام والمخطط الصهيونى	المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
ـ الصحافة الأقليمية والتنظيم السياسى	دار الكتب الجامعية
ـ القهيلا	الهيئة العامة للكتاب
ـ الصهيونية	سلسلة « كتابك »
ـ أكتوبر والـ ١٠٠ يوم من أجل السلام	هيئة الاستعلامات
ـ صحافتنا الأقليمية والأسكندرية	هيئة الكتاب
ـ نحو اعلام دولى جديد	هيئة الكتاب

★ روايات

- رحلة خارج اللعبة (رواية فى أقاصيص) الهيئة العامة للكتاب
- أرنب كالآخرين مكتبة مدبولى
- رحلات حب سرية (رواية فى قصص) مكتبة مدبولى
- رحلة ٤٦ مطبوعات عالم القصة
- ميريلاند
- الديك

★ رحلات

● رحلة الأحلام فى عالم الأساطير (طوكيو) مكتبة مدبولى
● رحلة الأحلام فى عالم العجائب (تايلاند) مكتبة مدبولى
● رحلة الأحلام فى عالم الغرائب (هونج كونج) مكتبة مدبولى
● رحلة فوق الأمواج (موانى البحر المتوسط)
● أوراق طائرة فى أوروبا الحائرة (عواصم أوروبا)

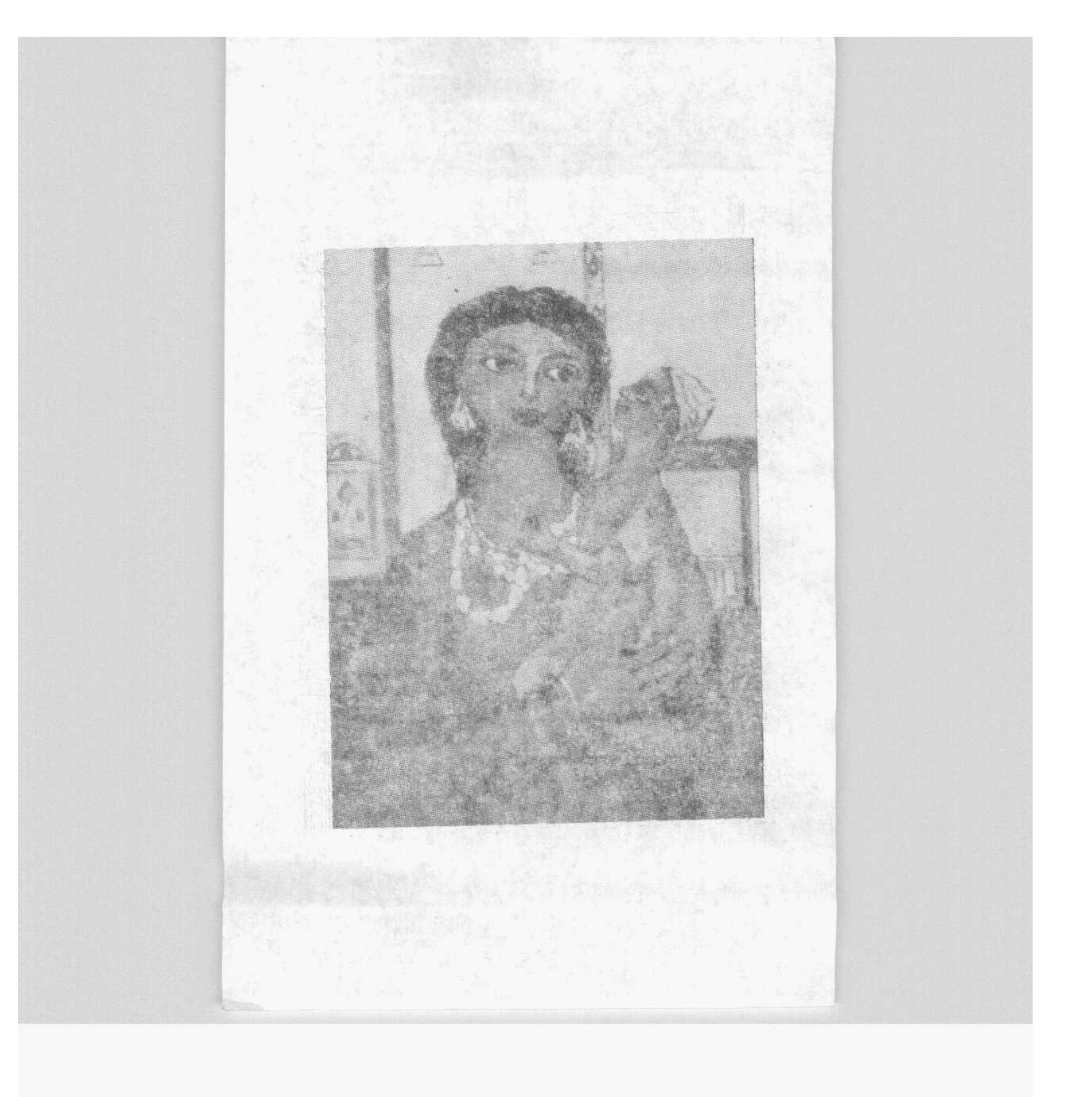


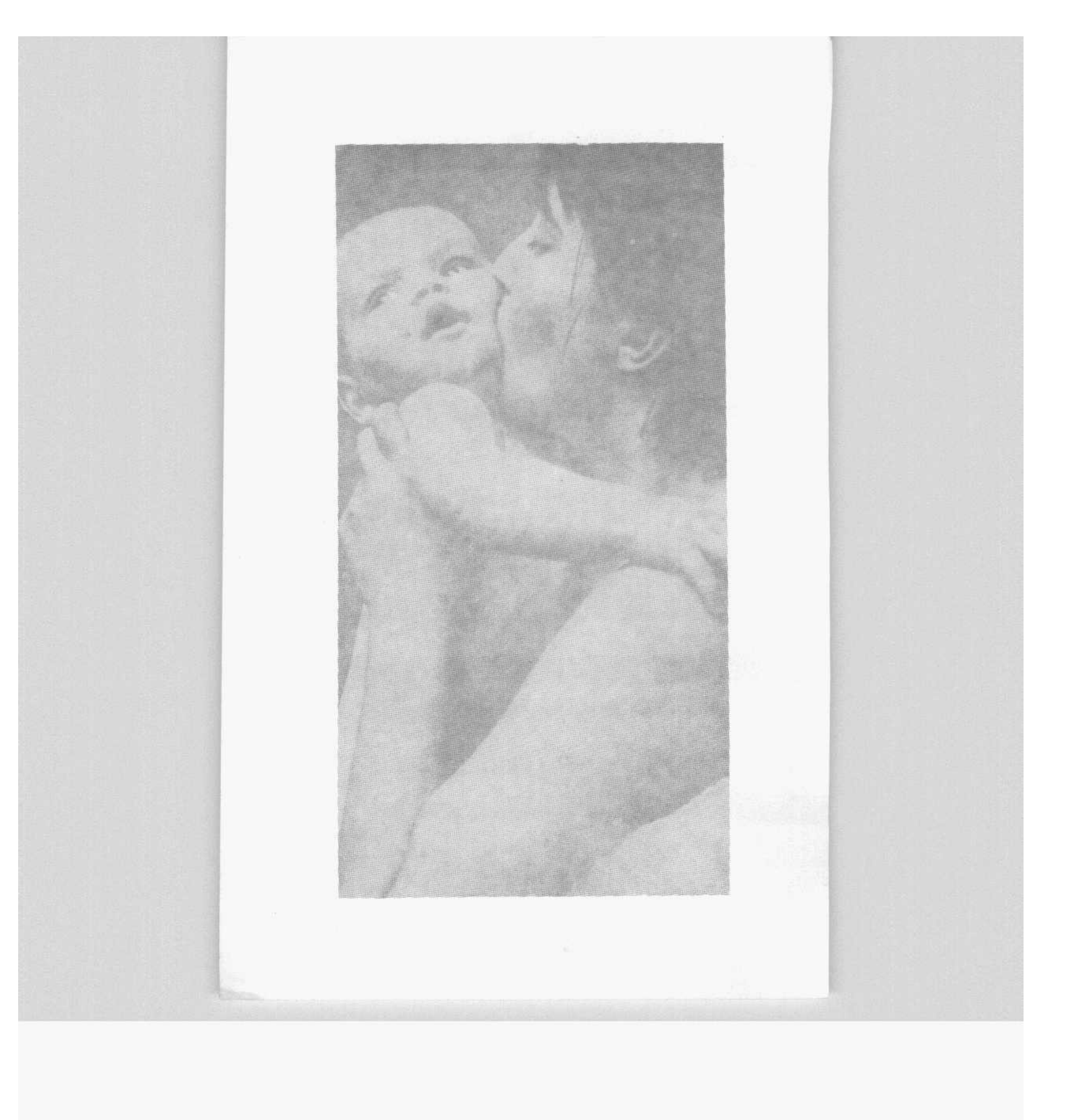


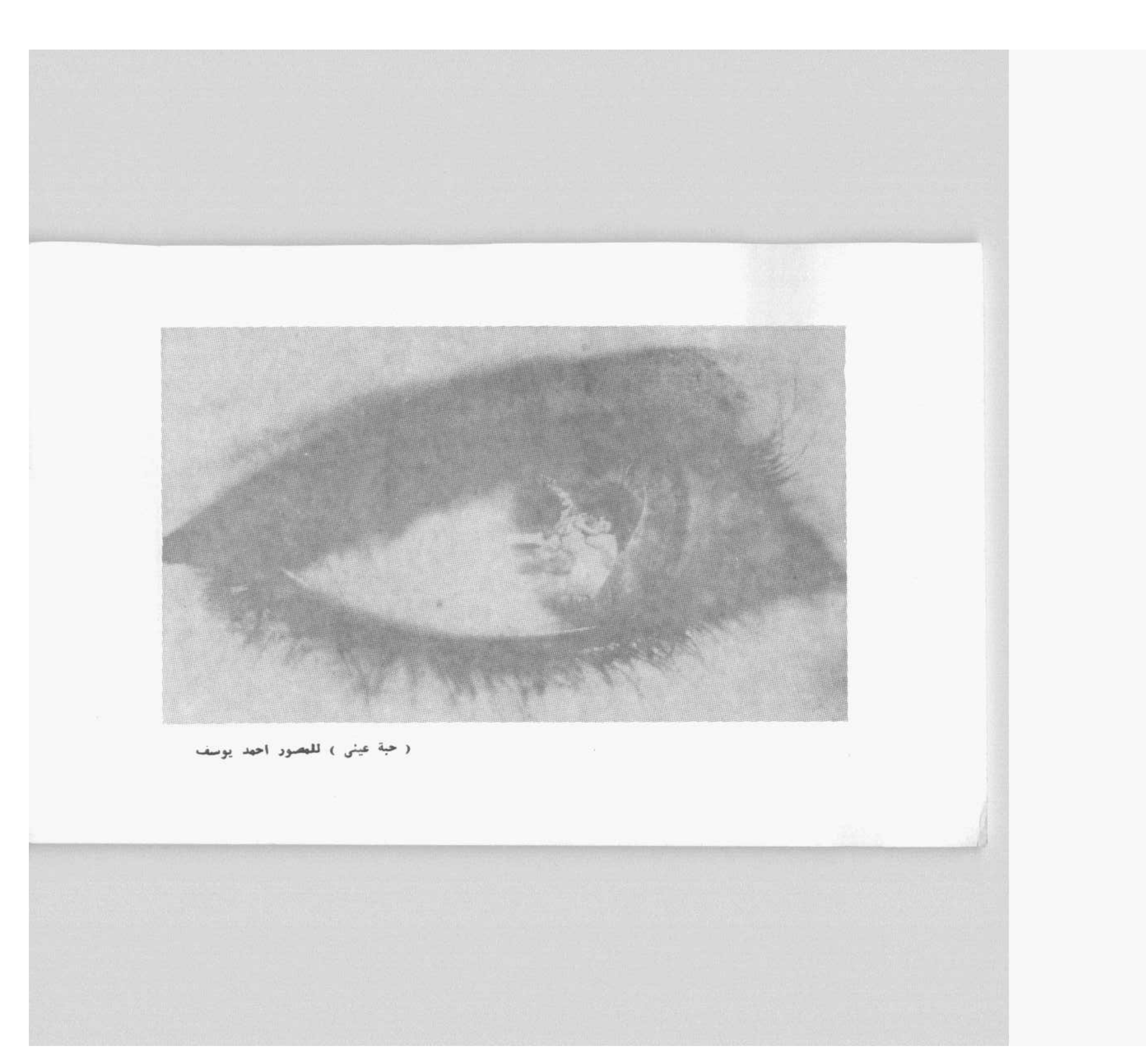
للفنان العالمى جويرشينو



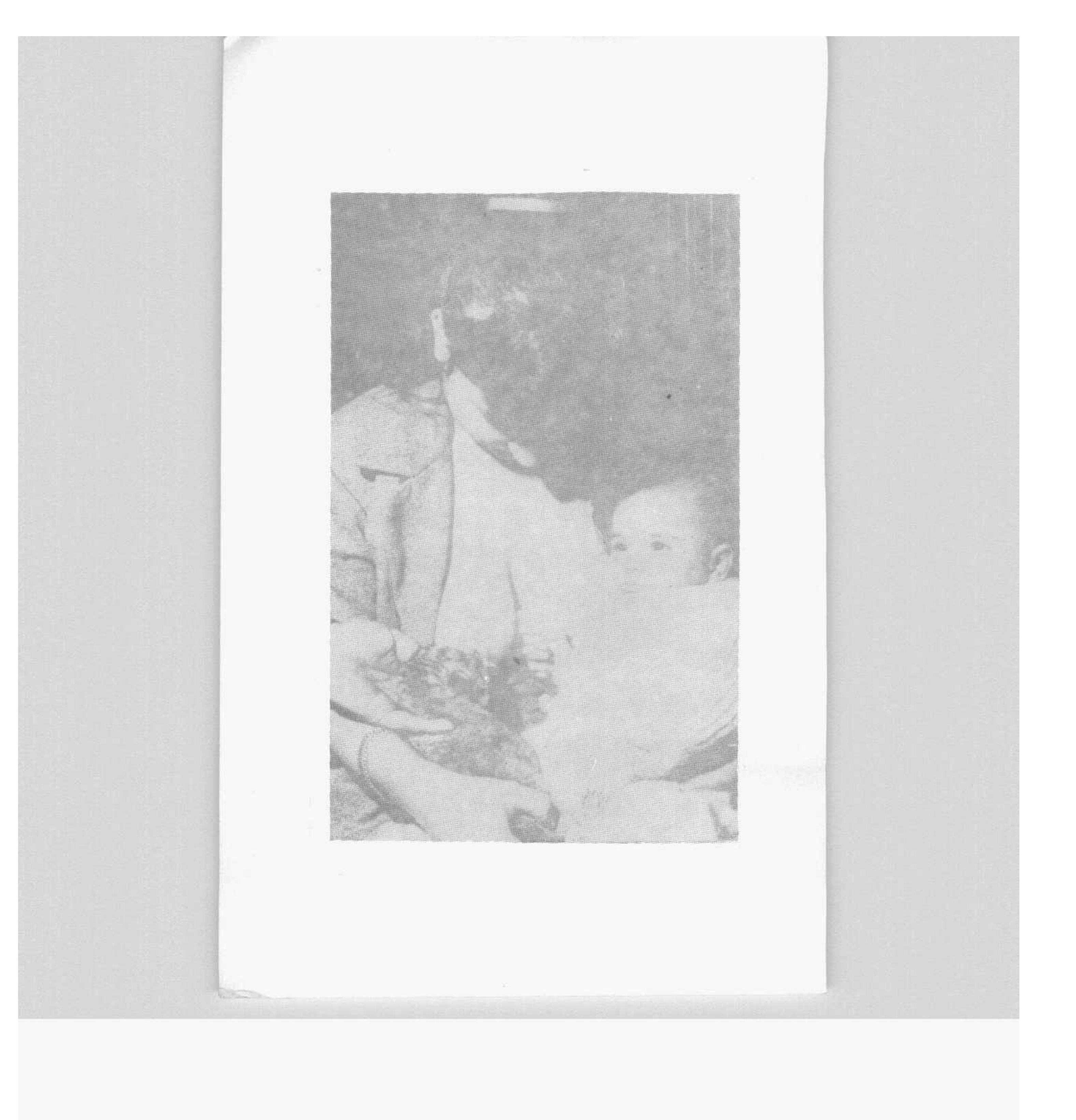
للفنان جورج البهجوري







(حبة عينى) للمصور احمد يوسف





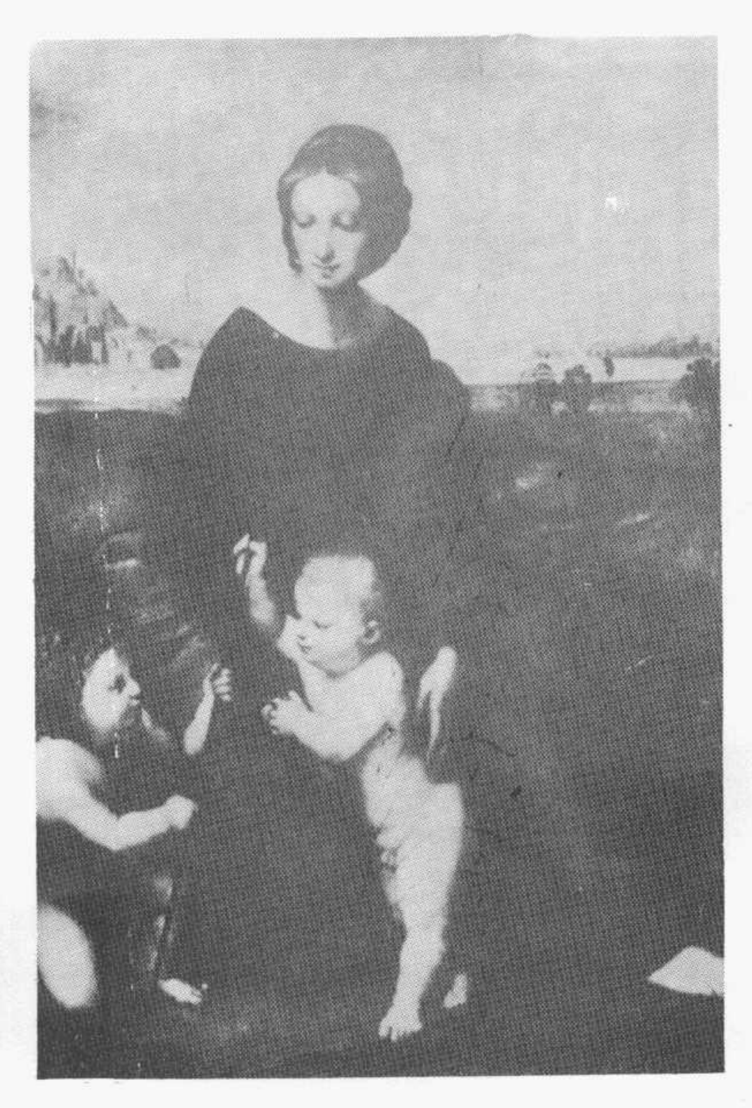
(للفنان انور عبد المولى)



(للفنان محمود سعيد)



(للفنانة ماري كاسات)



(للفنان رافائيل)



(للفنان صلاح طاهر)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٧١١ / ١٩٩١

ISBN 977- 01- 2753- 1